مجموعة قصصية

# فرصة هدف

عباس مدحت البياتي

# فرصة هدف

# عباس مدحت البياتي

\

# مراحل الكتابة

هواية الكتابة، مثل نبتة وجدت عناية استثنائية بين سائر النباتات؛ ترسخت جذورها في أعماق الذهن، ثم نمت في الفكرة، وترعرعت حتى غدت شجرة ترفل في فيافي الروح. أصبحت جزءًا لا يتجزأ من يومي، كالأكل والشرب، لا أنفك عنها ولا تنفك عني.

بدأت تسفر عن هوايتي منذ اللحظة التي بدأت بها أكتب، ثم أمزق ما أكتب، وأنا أبحث عن ذاتي بين أوراقي الظامئة. رافقتني مطالعتي المتنوعة لشتى أنواع الكتب، تولعتُ بكتب القصص والروايات، تلك التي فاضت لها نفسي شوقًا ورغبة.

ومع بلوغي، بدأت أضع لبنة الحس بالكلمة، وأعمّق مفهوم الجدل في التجربة. احتفظت بالخواطر والأشعار على رفوف الذاكرة، نتيجة تراكم عقد الحياة المصاحبة لنشأتي، باحثًا عن لغة الاستقرار، المرئية منها وغير المرئية، وفق نظرتي للمادة، ولحسابات أخرى تداخلت في صيرورة الحياة.

ومع اشتداد العقد في الذات والوطن، ذبلت تلك النوايا، وتراخت، وانعكفت على مسايرة الغاية. ابتعدت عن المحك نتيجة البحث عن الفضيلة في منعطفات الحياة، فتذبذبت فكرة الكتابة بين العجز والكسل والظرف الأهوج. استسلمت إرادتي لانشغالها في البحث عن الهوية، وعن الأمان النفسي والمادي وسط ظرف بركاني آل بالمجتمع إلى التدهور. بذلك أجهد الذهن والجسد، لكن المحاولة لم تتوقف، ولا التجربة في البحث عن الذات انتهت.

ولكن هيهات...

فما إن تغشى الرغبة لحظة، حتى تعود بيقظتها، تتبع خطى الأحلام، تهز الفكر والبدن، تغيظ النفس، وتبعثر الشك بين مجالات اللذة والانتماء. فأصحو على عبق رائحة الورق، أهجس بذاتي فراشة تطير بين خمائل أسطره، لأعود بروح صاغرة، تحث نزواتي نحو التمهيد والتجديد، نحو الغوص في مغامرة جديدة في جوف الرغبة، بخطوات بعثٍ جديدة ومتأصلة.

# القصص

1- الإعصار..... 7
2- متاهات الأقدار..... 19
3- نبع الحنان ..... 34
4- فرصة هدف..... 40
5- المتسول ..... 52
6- الفضولي .....67
7- بياض الدم ..... 85
8- الصدمة ..... 102
9- الرحلة المؤجلة..... 110
10-مدن دافئة.....135
11- صراط القلوب .....145

## 1- الإعصار

لم يبرح لقاؤنا الذي كان همسًا، أن يكون لقاءً عابرًا؛ إذ ما إن افترقنا، حتى شعرت بخيوط الشمس تذيب ثلوج السراب، تلك التي أخفت في ديجورها أحلامًا نزيهة حِقبًا من الزمن، وهي تتلوى بين وجلٍ وجلد، باحثة عن يقينٍ يُغزل بين معاكسات الشك المتكررة.

الغربة جمعتنا في بيتها الزجاجي، الفكر توقد من زيت الحنين. بين مرارة الغربة والفكر المتقد، انسابت الأشجان في جداول الأمل، زاحفة خلف هواجس الظن، لتسقي تلك الغصون التي عراها الزمن.

بعد لقاءٍ سريع، افترقنا، لكن مشاعرنا لم تفترق عن أريكة اللقاء، كأنها كانت موعودة بجولة أخرى مع شجون الحديث. فالطيور المهاجرة دائمًا ما تعود لأعشاشها، تتأمل الخواطر أن تحف الأحلام بدروب الغايات، وبشيء من مخزون الأمل. على الأقل، هذا ما كان يخامرني، ويوخز أحاسيسي بكل الصور الآهلة التي أغوت حقول فكري، وتربعت على شريعة ذاتي لأجلٍ قادم.

ومع افتراقنا، تركت في خواطري حيرةً صماء، ماهت كموجات صمتٍ في أفكاري، اختصرت المسافات البليغة لمرمى البصر. حيرةٌ أرعشت أوصالي، جزلت نظراتي، أربكتني تحت وطأة الخوف المراء في جوف الزمن.

كنت قد وجدت في حدقات عينيها تنهدات أرق، وفي وجنتيها ظلال خجلٍ، بانت كواحةٍ في صحراء تناجي القمر في تسهد ليلها الأدهم، وهي تودعني، كأنها تودع ذاتها، نتيجة الجهم الذي أصابها.

ظلت تلك اللحظة تلسع ذاتي، تنحت أثرًا في الذاكرة،

وتشتعل حنينًا حين همست الذكرى. كأنّ الأطياف ما كانت أطيافا تراودني، بل أقمارا تتصفح الليالي، تبحث عن أسرار العيون الساهرة.

انفعالاتها طغت على جدول أحلامي، وفصلت تخيلاتي، جرفت قارب الود نحو موجات الفؤاد المضطربة، فصار جزءًا من ثورة الشغف والأحلام المؤجلة، حتى غدت كل ثانية من العمر تنذرني بإعصارٍ قادم.

تركت هاجسي يتسلق تلك الأمواج المتعاقبة على صدري، كحشرجات متيمٍ لا يهدأ. ومع توالي الأيام، ازددت بها رهقًا وعذابًا، فلا يقين نمّ عن أمل، ولا شك دُمَّ وأحتضر..

تعلّق الأمر بخيط الغد الرفيع، الذي التفّ على عنقي حين أسهبنا في حديثنا، أغدقنا بما يكفي من فدفدة الأماني الطيبة، عبر لقاءٍ قصيرٍ أشبه بلقاء الطيور المهاجرة. كان الصدق كحلًا لحدقات العيون، والحنان غشاءً للأفئدة، وودٌ رقّ في خجلٍ بارقٍ على الوجنات، وعاطفةٌ ساحت بنزق شوقٍ رطّب أمنياتنا.

كل ذلك كان دافعًا لكسر حاجز الخجل، والتصافح عبر النظرات، ودغدغة الفكر والمشاعر بنغمات الود، والتعطر من زجاجة السحر، والانسجام الذي أفضى للمرحٍ روحٍ جياشة، دفعت النشوة لتغمر وجوهنا، وتطفو سرائرنا فوق كل صمتٍ ورنيم.

كنا أشبه بحمامتين التقتا على نبع ماء، كلٌ باح بقصته على أوتار شجنه، حتى غزلنا خيوط المشاعر في ضفيرةٍ واحدة، دلفت بها الأشواق إلى مصبها.

ونحن منغمسون في فتنة بعضنا البعض، هجستُ بالأشجار كأنها أصغت لهديل صدحنا، رقّت لحالنا، فرشت ملاءة ظلالها فوق رؤوسنا، جاملتنا، حضنتنا، وعزفت لنا سمفونية عشقٍ بحفيف أوراقها.

وحين طرق الريح صريرا موحشا ارهبنا، دبّ الوجل في أوصالي، وانزوت سرائري خلف الغاية المرادة في لحظة الوداع. شعرت بخيوط الحب معشقة بتلابيب الفؤاد، أدخلتني في أجواء الرغبة، وجالت بروحي في أروقة الصمت، فأفصحتُ عما كان يجول في خاطري، وطفحت آثارها على ملامح وجهي، لتشع كقنديلٍ سرمديٍ يسطع في أبراج العشق الأزلية.

كنت أهجس بفراستي حاضرةً بين مخالب الحدق، أتصفح خطوط التأمل المنثورة في إيماءات وجهها، تلك التي لا تستطيع أن تهرب من قيدها، ولا تملك كبح جماح انفعالاتها. ظل الفكر يرتع بعيدًا عن مساءات الحزن والغموض، المحيط بهواجسها القابعة على عرشها كسلطانٍ للوحدة والغربة.

أبصرتُ ذلك بتمعن، مما جعلني أسرح في أعماق الرغبة، بين أفانين الشك وأزاهير اليقين. لم أطرق أبواب الصدفة بحثًا عن الغاية المنشودة، بل تأملتها مليًا، قرأت شجونها، وهجست بلمسها، حتى راغت ذوائبها في كنفي.

وقبل أن يظلنا الزمن ونفترق، تركت لها رقم هاتفي، ليبقى دليل رغبةٍ وهوسٍ شدّني إليها، عسى أن تبقى للمحاولة ملاذًا بين نواهي الفكر، وكأني بذلك تنصلت من الحجج، وتركت غسيل الشوق على غارب الزمن.

مضت الأيام تأكل بعضها، القيد حزّ ساقي، لم أستطع أن أبرح أسوار مشاعري الراكدة، تلك التي طبعت بصماتها على جدران الفؤاد، غدت شموع ودٍ تتقد في أروقة الفكر دون إرادة.

كل الأوصاف التي تأملتها في رهقي، والتي شاقت فكري وبصري، وكالت لي مشقة العذاب، مغروسة في قامتها وذاتها كالخضرة، منغمسة في ورق الشجر، وفي ملامحها النضرة.

شعرها الرمادي منساب على كتفيها كنسيج شلالٍ من العتمة، يشهق بأضواء السَحَر. يخضل بشرتها لونٌ برونزيٌ جذاب، تبدو بإشراقة وجهها كمرآةٍ عاكسة، تستنبط أنوثتها من وحي الجمال والخيال. أنفها الشامخٌ بكبرياء ونبل، متقدٌ في وسط الوجه بحيوية، كمصباحٍ يبهج محيطه. شفاهها الرقيقة مغشية بوهج الورد، قوامها رشيق، مثقلٌ بالفتن، كنخلةٍ باسقة، وبكيانها تبدو كثرثرة عنادل مهووسة بتسابيح إلهية.

تلك الأوصاف جعلت الروع يغزل شوقًا على شباك القلب، يرسم صبرًا في خانات الانتظار، رغبةً تسللت لأعماق الذات عبر ثقوب الأحلام الدقيقة، بدت كخيوط شمسٍ مستطيرة، تنشد معزوفة أملٍ للقاءٍ قادم.

ومع افترقنا، أوحى إليّ اليقين بلقاءٍ آخر، رغم أن حواجز اليأس غطّت على حدقي، كانت فترة الفراق جلدةً ووخيمة. لحظات سرحانٍ وصمتٍ رافقت ظني، جعلتني في تيهٍ أمام هيجان الشوق واللهفة، فقدت فيها التركيز والثبات، إنه الهيام بعينه، وبكل ما تعنيه الكلمة.

أسرتني...
ثم لم تُبقِ فيّ شيئًا حيًا
كلي على بعضي تهشّم وتكسّر
حتى النور نفد من سراج روحي
لا شعلة بقيت في الفكر
ولا منظر.

ترى يا قاتلتي...
من أين أتيتِ؟
لتسقيني من ندى وجدكِ كأس حنظل

أراكِ قائمةً طويلةً من العناء
لا يريبكِ شيء
سوى شكّ زجلٍ أخطل.

في لحظةٍ عابرة، دون أن أكون ذا أثرٍ يُذكر، تذكرتني... هاتفتني، حلّت عقدة حيرتي دون سابق موعد، حين رنّ الهاتف، يمحو لحظات نسيان اسمها.

ترن – ترن – ترن – ترن...

كان ذلك مساء الخميس، بعد أن أوشكتُ على نسيان ملامح اللقاء العابر تمامًا. الملل قد تسلل إلى كأس أهوائي، وهي تمادت في قطع حبل الوصل. ذاتي كانت تحبو خلف لحظة رجاء، كطفلٍ يتوق إلى لعبة، تائهٌ في ظنونه، لا يدري أين تأخذه قدماه، ولا يملك خيطًا يصل به إليها، سوى هاجس ودٍّ يتسلل بين الأحايين.

فيما مضى، لم نُدرك حقيقة مشاعرنا. لا أعلم إن كانت قد شُغفت بي كما شُغفتُ بها، أو إن هزّتها مفاتن رجولتي... لا دليل لدي، سوى شكٍّ طاف بمخيلتي. طيور الودّ كانت تجوب فضاءات الشوق، دون أن تجد لها أعشاشا. كنتُ قد تركتُ مفاتيح الوصل بين يديها، بعد أن لاك الفراق بنا.

ما أن رنّ الهاتف، حتى طفح الحنين، تنمّلت أطرافي. في عجالة، قفزت هواجسي على طاولة الظن، ارتقت همس النداء، ولمست صوت الودّ وهو يسكب فيض الشوق في كأسي.

أمسكتُ بالهاتف، وإذا بصوتٍ رقيقٍ أعرفه، كهمسات الورد للفراشة، كهسيس النار للحطب. انساب في طبلة أذنيّ

كعزف ربابةٍ يخترق سكون البادية، بتثّ سكينةً في صدري، جردني من قيد الكدر الذي أثقل أوصالي. اضطرب الفؤاد، تسارعت نبضاته، انتصب شعر رأسي كحقل سنابل، كدت أفقد السيطرة على نفسي وأنا أنصت لهمساتها وهي تبعثرها بهدوء كنسمات فجرٍ تبحث عن ضوء الشمس.

- هلو... مساء الخير.
- مساء النور والسرور... ك...ي...ف...حا...لك؟
- الحمد لله، بخير... تهمني أخبارك.
- مشتاقٌ للقياكِ، أين أنتِ؟ لمَ هذه القطيعة؟
- بكل سرور، هذا ما وددتُ إخبارك به... هل نلتقي غدًا صباحًا في كافتيريا الفجر، تمام العاشرة؟
- من أجل عينيكِ، أُلغي كل مشاويري. شكرًا على لطفكِ، سأكون هناك، فلا تتأخري.
- إذًا، غدًا نلتقي بإذن الله. أنا مشغولة الآن، سامحني... مع السلامة.
- مع السلامة.

لم تدم المكالمة طويلًا. ربما لم يكن ما يُقال جاهزًا، أو أن الخجل لجم فاهي، والمفاجأة جزلت فكري، هزّتني، أنستني ذاتي، فبقي الشوق يعاني في عنق الزجاجة. لم يسعفني الحظ لتسليك المحاورة، ولم يسعني الزمن لإعادة تدوير أشواقي. الخجل سَفَّ كلماتي، بتر أفكاري، أرهقني، ولم يمنحني فرصة قطف ثمار اللقاء قبل نضوجها. بقيت الأمور معلّقة بلقاء الغد...

ما أودّ قوله لا يدخل من باب الهاتف الضيق، ما أودّ البوح به لا تسعه فيافي الشوق كلها. لا بدّ للمشاعر الجياشة،

وللإيماءات المعبرة، وللتفرّس في وجه الآخر، أن يفرش ظلاله ويفرض سلطانه. لا بدّ من لقاءٍ تتكسّر فيه الأمواج على صخور الشاطئ، لنضع حدًا للتكهنات، وننهي تلك المراهنات النازفة، كي تستقر الأمور في نصابها.

تلك المحادثة الخاطفة تركت في نفسي شجونًا، أبعدتني عن هاجس الضغط النفسي الذي تكبّلت به. بتُّ أستشعر ما حولي، أضحى فكري مشغولًا بترددات أمواج كلماتها التي قبعت في الذهن: "أرجو لقائك غدًا في كافتيريا الفجر..." إذاً، لا يأس مع المحاولة.

تخيّلتها قابعةً فوق سنام الحب، ترفد ظني بإيماءات الحلم، محاطةً بتمائم الحرز من الحسد، زرعت في ذاتي أملًا، جعلني أطوي فيافي الخريف من الذاكرة.

غدًا سأضع النقاط على الحروف، سأنفض الغبار عن الجسد، سأمضي بيقين، بحثًا عن سكونٍ يليق بي وبها، وليس الغد ببعيد.

تحزّمتُ بأملٍ تراءى لي كضوءٍ مداجي ينفذ من سُدم اليأس، من عيون الظن. سعيتُ خلفه بشيءٍ من الثقة والعناد والصبر. شعرتُ بالوقت يبطئ في سيره نحو واقع الحلم الأسير، هجستُ بالريبة من المفاجآت، وبدأتُ بخطواتٍ وئيدة نحو اللقاء، وأنا أرنُو إلى الحديقة النضرة، تلك التي تحتضن الكافتيريا، قبل الموعد بساعة.

خرجتُ بأبهى صورة، برفقة الوجل والهيام، وشذى العطور الفاضحة لسري. بتُّ أرى ذاتي في عين كل من يدقق النظر بشخصي، ماشياً بمحاذاة الشارع، وكأني الوحيد في هذا الكون ذاهبٌ لساحة الوغى، لمصيرٍ مجهول. تكبّلت خطواتي بين شعوري بالنصر والهزيمة في آنٍ واحد.

جلستُ جانبًا على كرسيٍ وحيد، أحتضن طاولةً دائرية

صغيرة، يحيط بها كرسيان، متأملاً ذاتي تحت ظل شجرة صفصاف باسقة، تنفض غبار الشك على الذهن. مشاعر لا أحتمل المماطلة بها، فأما أكون أو لا أكون، تلك هي الصخرة التي أودّ الوقوف عليها. أراها قريبةً مني، وهي أبعد ما تكون عن ظني.

زهورٌ مترامية الأطراف من حولي، زقزقة العصافير توحي بصبحٍ بهيج، مناظر لطيفة تهدئ الأعصاب المتوترة.

لم ألبث طويلًا، حتى بانت ملامحها تشرع في الأفق، تخترق ثنايا الأشجار كشهابٍ يخترق دجى الليل. تمشي الهوينى، ملاكٌ يتخطى أدمة الأرض بسحره وجاذبيته. فستانها الوردي يهفّ مع ريح خطواتها، يضفي بهجةً تتناغم مع لون شالها البنفسجي، وكأنها غصن بانٍ ينسلّ من بين صفوف الشجر.

مع كل خطوةٍ تخطوها، تغزّ أوصالي إبر الرعشة، يتثاقل جسدي، تصطك أسناني، رغم أن الطقس معتدل في نيسان. لم أكن قد مررتُ بتجربةٍ مسبقة، أول مرة أشعر بهذا الاضطراب، أول مرة لا أستطيع كبح جماح نفسي، ولا أشكم قلقي. أضحيتُ هائمًا، لا أملك مفاتيح الصبر.

لا أعرف كيف تمالكت نفسي حين أجبتها بصباح الخير، ردًا على صباحها:

- كيف حالك يا أثير؟ إن شاء الله بخير.
- الحمد لله... اشتقتُ لك يا نسمة. أين اختفيتِ؟ الأجواء باردة دون شمسك، لمَ كل هذا الجفاء؟
- الله الله على شاعريتك اللطيفة... شكرًا لإحساسك الجميل. الحقيقة، انشغلتُ في أمورٍ جمة أنستني أحبتي.
- كدتُ أظن أنني أصبحتُ في خبر كان، لم تذكريني

حتى برسالة.
- لا تقل ذلك، لن يستطيع أحدٌ أن يجتثك من فكره. مكانك محفوظ في الروح والقلب...

نطقت بذلك، وعيناها شاردتان في السماء، وكأنها لا تودّ أن تسمعها الطيور والأشجار. والكلام لها...

بدأت تغرّد، وأنا أنصت لها، أجسّد نظراتي في ملامحها، أتأملها من رأسها حتى أخمص قدميها، أرتشف من رضاب حديثها حنانًا، ومن صوتها سكونًا خلتُ من قبله السنن. كانت تتحدث عن ملابسات أمور شخصية شتى، تخص خططها ومشاريعها الخاصة. أسهبت في حديثها؛ لامست همساتها الفيّاضة جمر إحساسي برقةٍ آسرة. حينها قطعتُ وطراً من غربتي على واحة ثغرها المتدفق بالحيوية، رغبتُ أن ألوك ثغري بفرات شفتيها، عبثًا حاولت أن أنال من حسنها الأهيف، أو أشم عبير زهرها الفوّاح؛ الحواجز الأخلاقية منعتني من المجازفة.

بعرفي، تمنيت أن أنزع قناع الدين والقيم والمثل العليا عن وجهي، علّ جوارحي تهدأ، وقد باتت تغلي كبركان في أعماقي. جمعتُ شتائل الأحلام، ومضيتُ أبحر في قارب الشوق بين شواطئ عينيها، أختلج أمواج النهى بمجاذيف الشوق، لكن قممًا صمّاء اعترضت وصلي، ونشرت أشواك اليأس في التواءات طرقي.

بتُّ أراقب ملامح وجهها وأنا أسير خلف تأوّهات شفتيها، لم أصمد كثيرًا أمام عصف هواها الذي جرفني إلى شاطئ قلبها. أحسستُ بأني مشدوه البال، مشدودًا إليها بكل جوارحي أكثر من أي وقت مضى. استقرت عيني على ترترة الشفاه

وهي تبعثر الحديث بشوقٍ في باحة الصمت، حتى جرفتني نحو الدرك الأسفل من صرّة الحقيقة، تلك التي كنت أنتظر الوصول إليها على مضض، حين طرقت أذني عبارتها: "جئت أودّعك!"

ماذا؟! تلتقين بي لتودّعيني؟ إلى أين؟ انتفضتُ من غفوة الخدر التي راغت بأوصالي، تطايرت الأحلام من رأسي كعصافير مفزوعة، وانغمست صحوتي في أفيون الحيرة. اجتاحتني حالة من السكر، وهي تجرّ أذيال الخيبة خلفها... يا ترى، أين المفر من جيش أحلامي؟ أيّ الطرق أسلك لمستقبلٍ تأملته ليضيع بين حوافر الزمن؟ إلى أين ستنتقل بنا تلك المراكب العاجزة، بعد أن هرأت صواريها وأشرعتها على حين غفلة؟ لا فردوس، لا أحلام، لا خيال... دُمّرت القلاع بلمحة بصر، إنه الإعصار.

قالت، وفي عينيها حيرة واستحياء، بعد أن قرأت مشاعري تجاهها:....

- إني آسفة! أن أفاجئك بخبر خطوبتي. خطيبي ينتظر ترتيب مراسم العرس والسفر العاجل إلى فرنسا حيث ستكون الإقامة... في الحقيقة، جئت أدعوك للحضور؛ لأعرّفه على أهم أصدقائي. أتمنى أن تلبي رغبتي، لم أدعُ سوى المقربين مني فقط، فلا تقتل رغبتي!

صاعقة أقحمت فؤادي، الغشاوة أسدلت نوافذ عينيّ، إنه الإعصار كما توقّعته، لكني لم أكن أعلم بأن الإعصار مكنون في عينيها. تاه بصري في خفايا الظلام، كما تعثر الحظ بحجر الزمن، فيما وجفت نبضات القلب، وتثاقل لساني،

وتلعثمت خانعًا، حزينًا، بكلماتٍ تكاد لا تخرج من فمي إلا وهي مرهقة، ذابلة، حين قلت لها:....

- مبروك... حظًا سعيدًا... تأكدي بأني سأحضر، شاكرًا دعوتك لي.

- شكرًا جزيلًا، أتمنى لك الموفقية ومستقبلًا زاهرًا. أتمنى أن تتقبل مني هذه الساعة كهدية لأعز وأنبل إنسان عرفته، كان سراجًا منيرًا أقتفي به سبلي.

(أخرجت من جيبها ساعة رجالية ماركة سوداء، وقدّمتها لي)

- شكرًا لك، سأحتفظ بها ما حييت.
- مع السلامة.

مثلما قالت؛ كنتُ سراجًا لظلام غربتها، وها أنا قد نفد زيتي، فلم أعد أنير سهدي ورجائي. أسدل الستار عن الفصل الأخير من مسرحية الأحلام الضائعة، تلك التي شمعت فصولها بالشك أمام إعصارٍ محمّل باليقين لا يُبقي ولا يذر. قذفته على حين غفلة بحجري ثم اختفت. هكذا تنصّلت واختفت خلف حواجز القدر، مضت إلى حيث السكون الأبدي.

بقيتُ وحيدًا، أداعب الساعة الجميلة، أراقب عقارب الزمن التي لدغتني، كأنها بساعتها قالت لي: "لا تجعل لسواد الظن سلطانًا على بياض اليقين." ولكن... زمن بات يحاسب زمن، تاركة بحجري ساعتها كشاهد عيان، أتبع رتم دقاتها حينًا، وحينًا تتبع دقات قلبي المدان.

هي الحياة هكذا... تذكرة سفر، مرارة يقين، وعطف

وجدان.

تـرى، لمـاذا لـم تخبرنـي بخطبتهـا مسبقًا؟ لمـاذا لـم تكـن ترتـدي خـاتم خطوبـة حـين التقيتهـا أول مـرة؟ لكانـت وفّـرت علـى قلبـي هـذا العنـاء والعـذاب. يـا تـرى، هـل كنـتُ محطـة عـابرة فـي مشـوار حياتهـا؟ تـروم إلـيّ متـى مـا ضـاقت بهـا السـبل؟ أم تصـرّفت ببـراءة لإذكـائي بواقـع سـحرها؟ تلـك الأسـئلة لا أملـك لها أجوبة.

بقيـتُ جالسًـا بمقعـدي، أخـيط فتـق الأيـام بمخـيط الألـم. الحقيقـة الدامغـة لـم تجـد اهتمامًـا صـارخًا وواضـحًا مـن قبلـي، أو بـالأحرى لـم أسـتطع استشـعارها بإرهاصـاتي ووجـدي، لـذا بنـت تصـرفها وفـق علاقـة آنيـة عـابرة، كمعظـم النسـاء. مضـت، وبقيـت عينـاي تتتبـع أثرهـا وهـي تنـزوي كشـبح بـين أغصـان الأشجار.

حينها تذكرت قول المتنبي:

إن أقبلت كادت تُقاد بشعرة...

وإن أدبرت كادت تقدّ السلاسلا.

## 2- متاهات الأقدار

لولا طلس لونه، وذيله المعقوف على ظهره، لقلت إنه ذئب يجوب أطراف محلتنا في ذلك المساء الهادئ من ليالي الصيف الجميلة. الذئب غابس اللون، ذيله الطويل يمتد خلفه، يتحفى بحذر شديد، لا يدخل أنفه في معمعة تؤدي به إلى متاهات الأقدار. مشكلته أنه يُفترَسْ من بني جنسه إذا ما خدش جلده، أو طُعن نتيجة جبن أو غفلة، كما يُفترس من وهنت قواه وتناحل كاهله أو أصابه العجز. كان مرفوع الرأس، يمشي بخطوات واثقة، صوان أذنيه شاخصان، تتوجسان همس الشياطين، عيناه مبرقتان، تبصران خلف المدى. قوامه رشيق، ذو بنية قوية، تبرز مفاتن عضلاته المفتولة خلال حركاته الاستعراضية. سريع البداهة، نافذ الصبر، قوي العزم، ينفث أنفاسًا شرسة، جامحة. تتراءى صوره القاحلة في غبر شكله المرعب، ذات أسنان عاجية ولسان قرمزي لاهث. إنه ذلك الوحش الكاسر... الكلب الأسود.

استحوذ على شعب تفكيري، واستلب حصافة ذهني من أول وهلة جاب بها أطراف محلتنا. فرس يتأنق بين حواضن الخيل، يتأنق برشاقة هرولته، وهو يتقفز على أطراف أصابعه كأنه يتنقل فوق بساط إسفنجي. عيناه تتسمران في أرجاء الطرق، تتغامزان بشغف، تومضان نواصي الوجد، تُسبران مقصد غوره في حدوده الآنية. تشع من شدقيه غرائز عنف قوية، تستطير في الأفق ضبحة أنفاسه ولهاثه وصوت نباحه الهادر، يستبيح الزوايا والأماكن المنزوية بحثًا عن الكلاب الضالة، السائبة.

كان لصور تواجده مع غبار الغسق المتناثر تحت ظل سكون عم أرجاء ذلك المساء الهادئ أثرٌ بارزٌ في النفوس المرهفة، لهالة الوجل المثارة حوله. تهجس بالغضب الطافح في قسمات وجهه وفي حدقات عينيه المستطيرة. بتلك السمات القسرية، كان يزحف بثقله وبثقة خلف تطلعاته بين مسالك الدروب، بحثًا عن الكلاب السائبة.

رماه صبي بحجر، انتبرت مناكبه، استكان في موضعه، تطلع نحو الصبي بوجه عبوس، زجره بنعرة من نباحه ملؤها غضب، وهو يتفرس بوجه الطفل، أبرمت في أوصاله خيوط الفزع، مضى الطفل هاربًا لداره، تحفه جلجلة الخوف، دون أن يتبعه الكلب، كأنه قال له: – احذر، لا تعبث معي.

عاد بعدها لهرولته وهدوئه ورزانته، يجوب أطراف المحلة. لم يتوانَ طويلًا في إسهاب بحثه عن فلول حيرته، الثقة كامنة في ذاته، كأنه يمضي خلف خيط دخان ينفث من عزمه، متلهف للمواجهة، شديد المراقبة، تركيزه منصب خلف غايته.

قبل أن يجتاز المحلة، استنارت قبس حدقات عينيه المبحلقة كلبة صفراء في ثنايا المنعطفات، تخور بحدود الظلمة السائدة، تبعثر في خشخاش قصب إحدى الحدائق. رماها بسنارة حدقاته، تجاهرت خطاه، أسرع نحوها وهو يزمجر في فضاء صاخب بهدير مزر تقشعر له الأبدان، بشدة طرقه استحوذ عليها قبل أن تفلت من قبضته، قيدها بشباك رهبته، أطبق عليها بجبروت سره. حاولت أن تفلت، لكنه داهمها بطوفان الرعب، اجتث منها المبادرة، أودعها سجنه، جعلها تمرغ في التراب تحت قدميه وهي تئن، تولول بصوت خانع، وكأنها ترجوه متوسلة أن يفك عنها قيدها، ناكصة رأسها، خائرة القوى. وبعد وشوشة قصيرة دارت بينهما،

مضى يهرول بزهوه وهي تتبعه بخطوات مهزوزة، يكتنف أساريرها الارتباك. بنفس مهترة، ماضية نحو قدرها المجهول...

كانت قد تحاملت على نفسها، بعد أن سلبها الإرادة. لماذا هجم عليها؟ بمَ هددها وحاورها؟ ما الهدف والغاية من ذلك؟... سيل من الأسئلة تراكبت في ذهني، بتُّ أبحث لها عن أجوبة من خلال تتبع ذلك الكلب عبر مراحل تحركه.

اجتاز الشارع الذي يتوسط المحلة، كاميرا عينيه الثاقبة تلتقط صور الكلاب في محيط الحي، تتوجس صورهم أينما وجدوا، تهجس بخياشيمه، تجس رائحة الكلاب عبر الأثير. التقطت هواجسه كلبًا يتبختر في ثنايا الأزقة، أسر له ومضة لاذعة من سنا عينيه، استكان في جناحه، تنحلت مجاميعه، تراخت قواه، ارتعشت أوصاله بمجرد سماع هديره المفزع وهو يجتاح الأفق. حاول أن يتنصل عن النداء المحيط به، همّ بالهرب، تسابقت الخطى، وقبل أن ينزوي في مسالك الحدائق، استحوذ عليه في وثبة خاطفة. محق إرادته بإرادته الجامحة، ومن ورائه الكلبة الصفراء تسنده. همهم بصوت ضابح مختنق في رجاء وخنوع، حلت لحظات الاستسلام والتحاور والوسوسة، تهامس الكلبان كما سبق مع الكلبة الصفراء. عاد بعدها لأدراجه يتبختر في سيره، يتبعه الكلبان بخذلان، وكان الكلب الثالث مهجنًا يتميز بخوذة سوداء.

***

العجيب في أمره أنه لم يتعسف قط في تعامله، ولم يحاول الانتقام من خصمه، على الرغم من قدرته على فعل ذلك. كان يأبى العنف، إلا في حالة عدم امتثال الخصم لطاعته. صورٌ لماحةٌ تعدّت أطر الخيال والوصف، عِبرٌ تنهل من تلك العلاقة: طاعة، وحزم، واحترام، برقت وسط صمتٍ مطبق.

هـدوءٌ عصـف بمحـيط تلـك الألفـة المجتمعـة خلـف القـوة والإرادة، مسـرحية تراجيديـة لـم يسـبق أن سـمعت بمثيلهـا أو شـاهدت نظيرهـا. يكتنـف حوارهـا لفيـفٌ مـن الأسـرار المبهمـة، تفاقمـت فـي نواحيهـا سـرائر مـن العجـب المبـرزخ بـين أقطـاب المحاور، بحيث كانت الألفة على أعلى درجاتها.

ذلـك الجبـروت أضـحى لغـزًا محيـرًا لـي، هـوة مـن الأسـرار والهيبـة تتحـرك فـي وسـط الميـدان، تـتحكم بهـا فكـرة صـماء لا تُسـفر عـن وضـوح الهـدف أو الغايـة. ذلـك مـا جعلنـي أتبـع تحركات ذلك الكلب بحذر أينما يكون.

تُعـد الكـلاب مـن أذكـى أنـواع الحيوانـات، أودع الله فيهـا ذكـاءً حـادًا وفراسـةً قويـة. لا بـد مـن لغـةٍ تُـدار بـين تلـك الألفـة، تضـفي علـيهم صـفة التميـز، وتُفصـح عـن مضـمون التحـاور والتوجيـه. ذكـاءٌ ينظم هـذا السـلوك، وفطنـةٌ تحـدد الهـدف. يملكـون لغـة إيمـاء وحركـات ووشوشـة، تفتعلهـا الكـلاب للتحـاور، فيهـا إيحـاءات ورقصـات تعبـر عـن رغبـة أو فعـلٍ مـا... هـي لغـة تخصـهم، كمـا لباقي الحيوانات لغاتهم.

ألـم يُكلـم النبـي سـليمان عليـه السـلام الهدهـد والنملـة والجـن؟ ألـم يـذكر الله عـز وجـل أنهـم أمـمٌ مثلنـا؟ إن الوفـاء والـذكاء الـذي يتميـز بـه الكلـب عـن سـائر الحيوانـات جعلـه حارسًـا أمينًـا، بحـدود السـلامة والوفـاء، وبتقنيـة عاليـة. تلـك الخاصـية خُـصَّ بهـا الكلب عن سائر الحيوانات، يتفوق بها على كثير من البشر.

أذكـر حادثـةً معينـة شـاهدتها بـأم عينـي، حـين دهسـت عجلـةٌ مسـرعة أحـد كلبـين خـلال عبورهمـا الشـارع العـام. انطلـق الكلـب الآخـر خلـف العجلـة الداهسـة، ينـبح بغضـبٍ عـارم، يـودّ الانتقـام لصـاحبه. كـان يـركض خلفهـا بجنـون، لـم يُعـر أي اهتمـام لمخـاطر السـيارات الأخـرى المسـرعة إلـى جانبـه. وبعـد أن ولّـت العجلـة بعيـدًا، عـاد يولـول علـى صـاحبه الـذي كـان قـد نفـق رمقـه

الأخير.

صار يهمهم ويدور حول رأسه كالثكلى التي افتقدت شريك حياتها. الحيرة والحزن طاغيان عليه، وهو ينوح ويصرخ محاولًا أن يعين صاحبه على النهوض دون جدوى. لو كان يعرف البكاء، لهمرت دموع الحزن والوفاء تغرق بها وجه صاحبه.

على كلٍ، مضى الكلاب الثلاثة باتجاه نهر ديالى، سالكين ممر السابلة. وعلى مزبلة قرب النهر، التقيا بكلبين أبيضين ينبشان في خدود المزبلة، يبحثان عن فضلات الطعام. تلاحمت النظرات، تزاهرت الهواجس، تجانست المناغاة. وبدون أية معمعة أو فوضى، انتميا للمجموعة خلف القائد الأسود بكل امتنان، لحظات سادها تناغم عجيب من ألفة وتخاطر وتودد.

اتجه الكلاب الخمسة إلى وادي العوسج، وهو وادٍ يشطر مدينة جلولاء لنصفين، يصب نهايته في نهر ديالى. وهو المنفذ الوحيد لتجمع مياه الأمطار المنحدرة من التلول الشرقية، ليحميها من همجية الفيضانات، مشكّلًا في انحرافه قوسًا منحدرًا من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، كحرف (ر) بخط الديواني للغة العربية.

من ملتقى مصبّه بمحاذاة الشمال الغربي، تمتد حدود محلة الطليعة، فيما تكون الجهة المعاكسة من جهة الجنوب للوادي حدود محلة الوحدة. ترتبط المحلتان بشارع رئيسي يتقاطع مع قضبان السكك الحديدية المتجهة إلى العاصمة بغداد، أمام مركز الشرطة الرئيسي للمدينة، والكائن ضمن حدود محلة الوحدة. وتحدّه من الجهة الشمالية محلة العروبة ودور الشهداء، ومن الجهة الشرقية محلة الجماهير. هذه معالم جانبية لمدينة جلولاء.

خلال إطلالتهم على حافة الوادي من جانب محلة الطليعة، صادفوا كلبًا مرقطًا يتمرغ بالتراب خلف علبة فارغة. كان أسير هواه، لا تتعدى غايته أفق بطنه، وطأة الخوف استنزفت أساريره، فجارت به لمهاوي الوحدة. دون أن ينتبه، نبحوا عليه كمجموعة بنبرة واحدة، فزّ من غفلته، انتفض على أطرافه، أسرع نحوهم يجري وكأنه كان ينتظر إشارة منهم. كأنهم حملوا عن أكتافه أوزار الوحشة التي أثقلت كاهله، فانضم للمجموعة بيسر وامتنان.

أصبح عدد الكلاب ستة، وصار تجمعهم يجلب الأنظار، بل صار شكلهم يبعث الرهبة في قلوب كل من يلتقيهم في طريقهم. كل هذه الوقائع جرت في مدة لا تتجاوز ساعة زمن، وفي مساحة بطول (300 – 400) متر وعرض (100 – 200) متر.

في تلك الأثناء، بدأ إحساس غريب ينمو في فكري، أشبه بلفتة زهرة اللوتس وهي تنوس بين شبكة من الأدغال والأشواك البرية، لتغرّ بجمالها عينًا ضبحت من جلد الفلاة المحيط بها. ومثلما أشم عبير تلك الزهرة عن بعد، صرت أشم رائحة الخطر عبر إحساسي وتوجّسي جراء اتحاد الكلاب، تلك التي صارت تنهداتها تفيض أرقًا في منازل الفكر. وخوفًا من المجهول المتقوقع في موضع الإحساس، تمسّكت بسوط الحذر لأقمع به نقيق الفزع السادي في أفق الخيال، لأحيط تلك المسالك الصمّاء والمنافذ العتمة بصمت وترقّب شديد. فامتدت يداي إلى غصن توت مترام خارج أسوار إحدى الحدائق، تعلقت به، تأرجحت به، شددت عليه بقوة حتى أنفصم من عقدة البرعم الذي أمتد من خلالها.

سحبت الغصن، جلوت أوراقه وكشط براعمه وأدمه وفروع أغصانه الملحقة به، فيما ظلت عيناي تتوجس أثر

الكلاب وهي تهرول في منتهى الأفق، حتى انزوت في غور الوادي بين متعطفاته شرقا باتجاه محلة العروبة والجماهير، متخذة من منحنيات الوادي حماية لها.

جلست وحيدا على صخرة رخام أترقب عودة الكلاب وفي يديَّ شطب الغصن أبعثر به الحصى، أنش به الثرى. الخوف من المجهول دعاني أهيئ ذاتي للظرف القادم، ربما أكون أنا الضحية، ربما هذه العصا ستكون القوة الرادعة لتجنب خطط الكلاب، وبذلك أحفظ نفسي من خطر لا أعرف مقداره وحجمه وهمجيته. الفضول جعلني أتقبل التحدي والمواجهة ومتابعة نهاية قصة الكلاب.

العصا لمن عصا، وهذه الكلاب شكلها لا يطمئن، وراء كل تجمع غاية وهدف، قد أكون هدفا لها وخاصة ليس لديَّ ما أحمي به جسدي سوى عقلي، والعقل في لحظات المواجهة يتجرد من صفاته وفائدته، حيث يتوقف عن الأبداع وخاصة أذا ما واجه رعبا حقيقيا بحجم رعب الكلب الأسود.

أنه ليس كباقي الكلاب، أراه أسدا بهيئة كلب، في لحظة الضعف والخطر الأكيد، ينشل الفكر، يصاب بجلطة لحظية، يتسامى فيه الذهول والخوف بالصيغة والقيمة، فحين يستسلم التفكير للخوف؛ ينتقل الشخص لواحة اليأس والاستسلام، ومنه إلى فراغ فكري الغير محدود في عالم اللامبالاة إلا ما ندر.

صرت أهف بشطب العود، أضرب به الأرض، أختبر صلابته، وأحيانًا أطرق به علبة فارغة مرمية على جادة الطريق، فيمضي نقيرها مجلجلًا في سدم الصمت، يذهب الصوت بعيدًا ثم يعود صداه ينبئ بالوحشة، يزيد من غثاثة الروع المحيط بي. يرتد الصدى ليترك رنينًا رتيبًا يتسلق هاجس الخيال، فأنشغل بإسهاب قصص شجية عن تلك

المجموعة من الكلاب السائبة، قصص من عالم آخر، ركبت مركب الخيال.

... ماذا لو تمكن الكلب من الطيران؟ وتمادى في بحثه عن اللص المحتفظ بقلادة الأميرة، المتخفي خلف أسوار شاهقة أو بين الأحراش؟ حينها ينقض عليه رغم انزوائه، سيفترسه على غفلة من أمره، فالكلب لا يغفل عن رائحة الذهب، ولا عن عبق الأميرة العالق بالعقد. فللشم ميزة فيه ترفعه إلى درجة المتابعة والملاحقة للمجرمين، وإن اختفوا.

ماست شواطئ ذهني أفكار أبعدتني عن صخب الحدث، بحرت في المعقول واللامعقول، ثم عادت بي مجددًا لأنشغل بقصص الكلاب، وكأني على يقين من عودتهم ثانية إلى ميدان المسرح كالطيور المهاجرة.

... يا ترى، ماذا لو استطاع ذلك الكلب الرمادي أن يجمع كلاب المدينة كلها؟ حتمًا هي كثيرة. يوظفها تحت إرادته في أطر ونظم صارمة، يملي عليها توجيهاته وتعليماته، ثم يوضبها تحت إدارته، يلقنها تدريبات في فنون القتال، يشحذها من منهل قوته وشراسته، ثم ينصب نفسه ملكًا عليها.

ستتوسع أهدافهم، سيهاجمون قطاعات المدينة، يحتلونها واحدة تلو الأخرى، حتى يدب الرعب في نفوس الناس، فيهجروا المدينة بأسرها فتغدو مملكة كلاب، الأولى من نوعها في العالم، تدخل بها موسوعة غينيس للأرقام القياسية.

مملكة لها أحكامها وقوانينها وقواعدها، لها حراسها وأمناؤها، شرطة مرور وتحري وتحقيق وأجهزة مخابرات... كل يعمل من جانبه. وإذا ما دخل بشر إلى مملكتهم، يمزقوه أربًا أربًا.

هم في إدارتهم لشؤونهم سيكونون أفضل من البشر، على الأقل من الناحية الأمنية. لا يتاجرون بالتفاضل على حساب

الطائفية أو القومية أو الدين أو الأحزاب أو اللون والعنصرية. لا يُقصى كلب من عمله، لا يُعدم لسبب سياسي أو طائفي، لا يُهجر أو يُنفى لعداء شخصي أو مذهبي. لا انتماءات حزبية، الكل لهم حقوق وواجبات في خدمة المجتمع الكلابي.

ألم تُسلب فلسطين بتجمعات استيطانية صغيرة، كبرت فيما بعد وكونت سرطانا في جسد العرب؟

أوه... أين ذهبت في لغط إسهابي؟ حقًا إنها مضحكة. أحيانًا السهو ينقلك إلى واحة فكرية غنية أو فسيفسائية، وأحيانًا لا تخرج منها إلا والهم قد كبّل يديك ورجليك بقيود خارجة عن إرادتك.

وأنا في نشوة أفكاري الشاردة، وأحداقي منصبة في متاهات الوادي باتجاه محطة القطارات، وبالذات نحو ذلك التنين المعدني الذي ترتعد الجدران من زئيره الموحش، وهو يمضي في سراط مستقيم، لا يحيد عن مساره قيد شعرة، لا يبالي بمن حوله، يخدم الجميع دون أن ينتظر ثناء، لا يتجاوز على حقوق الناس أو توجهاتهم. إنه جبار في قوته وخدمته وجبروته.

أحيانًا أسأل نفسي: لِمَ لا يكون الإنسان مستقيمًا في حياته كهذا التنين؟ يزرع الحب، يخدم الجميع، ولا ينمّ في أعراض الناس أو خصوصياتهم.

وأنا منشغل بإسهاب الفكر، وبشُعب الذهن المشظة، وبالذات في ذلك التنين القابع خلفي، تحت قبعة سكون العتمة المسحوبة على الأرجاء، يبدو كجبل شامخ، عملاق، يتراءى عن بعد وسط الحلكة الداكنة، أكثر سوادًا ودماسة من المحيط الذي يألفه. السكون يرسم على هيكله شكلًا مرعبًا، يوجِل بالفزع.

في تلك الأثناء، تعالى غبار كثيف أمام ذلك التنين في

وسط المحطة، من جانب سكة القطار الشمالية الفاصلة بين محلتي العروبة والطليعة. كانت الرؤية شبه معدومة، لم أميز الصورة جيدًا تحت ظل الغسق، لبعد المسافة وكلكلة ظلال الليل، بعد أن زحف الغسق نحو وهدة العتمة، مفترشًا أجنحته على بساط الأرض المميدة.

في بادئ الأمر، لم أركن إلى الحقيقة الأكيدة، اعتقدت السرب قطيع غنم يعبر المسار إلى الجانب الآخر. لكن بعد برهة، اختلفت المسألة تمامًا. لا توجد أغنام تسير بهذه السرعة تحت جنح الظلام. الأصوات خافتة، مبهمة، تجمع وتيرها على نغمة نباح، ضبحها شق سكون الليل، بددت فراستي، جعلت الأمور في نصابها دون تفسير.

خلال اقترابهم، تمكنت من إحصاء عددهم... كانوا عشرة كلاب أو يزيدون، يوسطهم قائدهم الأسود. من خلال ترتيبهم المتناسق، تستطيع أن تحدد قدم انتماء كل منهم للمجموعة، أشبه بحظيرة عسكرية تلفت الأنظار في استعراضها. من اليمين الكلبة الصفراء، ومن اليسار ذات الخوذة السوداء، ومن خلفهم الكلبان الأبيضان، ثم البقية. طاعة وحزم ونظام والتزام، كثيرًا ما يفتقر لها البشر.

خلال تسللهم المنحدر بين المحطة ومحلة الطليعة، صادفتهم دجاجتان تسرحان في بساط الحشائش، تحت ضوء مصباح كهربائي معلق في قمة عمود يضيء الطريق قرب مدرج –الرمبة– محطة تحميل البضائع الثقيلة التابعة لدائرة السكك، في السهل الممتد نحو الوادي.

كانت الساعة تشير إلى ما بعد الغروب بساعة من ليالي الصيف الدافئة، الشوارع لا تزال عامرة بناسها، والحرارة معتدلة.

وقبل أن تستفيق الدجاجتان من الغفلة، وقبل أن يسعفهما

بساط الريح، انقضوا عليهما بلمحة البصر، صاغوهما لقمة سائغة، دون أن تجدي قوقتهما نفعًا. اختفيتا من الوجود، أصبحتا في خبر كان، شفق على ذكراهما الريش المتناثر في الأرجاء، دلالة على وقوع الجريمة.

كانتا أشبه بعربون صداقة بعد جولة عناء دامت أكثر من ساعة على تجمعهم وتجوالهم بين أزقة الأحياء ودروب الطرق.

لقد سمعنا بعصابات اللصوص وقطاع الطرق، لكن أن تكون للكلاب عصابة تجيش الرعب بين أوصال الناس، فهذا ما لم يخطر على البال إطلاقًا. ستكون أشد ضراوة وقسوة على الكائنات الحية دون تفريق.

خلال تماديهم في هرولتهم باتجاه الوادي، توالت أمامهم قطيع من البقر، بحدود سبع بقرات يمشين رتلاً نحو مرائبهن. علِمًا أن الأبقار معتادة على سلك طرقها كل يوم مرتين؛ ذهابًا وإيابًا دون راع أو متابعة. تخرج من أوكارها في محلة الوحدة صباحًا إلى حيث الكلأ المحاذي للنهر في حوض محلة الطليعة، ثم تؤب مساءً إلى حظائرها في الوحدة، تسلكن ذات الطرق، وكأنها مبرمجة بالساعة والدقيقة. لا يقلق أصحابها إن تأخرت، فهن يستمتعن بأمان مطلق، لا يعترضهن أحد ولا يحيدهن عن مسارهن.

لكن ما إن انبعث نباح الكلاب خلفهن، حتى تسارعت خطواتهن، وارتجفت أوصالهن بدباب الخوف والوجل والهلع. هرعن يسبقن شتاتهن بأطراف شتى، فتفرقت الأبعاد، مما شجع الكلاب على زيادة الغلة والشراسة. شاءت الصدفة أن يتملص القطيع من شباك فصيل الكلاب، إلا بقرة واحدة تخلفت عن صاحباتها، لفرط سمنها وكبر ضرعها. بقيت تخور في بطاحها، عاجزة عن الإفلات من قبضة الكلاب،

دون معونة أو نجدة.

تكالبت عليها الكلاب، فصارت فريسة سهلة بين أنيابها ومخالب القدر. لم ينفعها نطاحها ولا رفسها، ومضت محاولاتها دون جدوى أمام شراسة الكلاب. جاهدت بخوارها، لكن لا خيط رجاء يميسها، ولا من يهتم بصخب واقعها. داهمها الخطر من كل حدب وصوب، وأطبق عليها شباك الموت. قفز الكلب الأسود على ظهرها، كأنه أطلق العنان لفريقه بالهجوم. عضتها الكلبة الصفراء من ساقها، فيما البقرة تحاول الخروج من براثن الموت، فانقضت ذات الخوذة السوداء على رقبتها، فأصبح حالها يرثى له، كأن نارًا أضرمت في حزمة حطب، والخوف يطقطق حولها.

استغاثت بخوارها، تصيخ منافذ السمع، ومع معاناتها، استطاعت أن تجر جسدها الأجدب نحو مآربها، لتقترب من تقاطع الشارع العام مع سكة الحديد، قبالة مركز الشرطة. كان الصمت يعم المدينة مع حلول العتمة، وصارت على بعد خطوات معدودة من المركز، رغم الجراح التي تكللت بها.

وقبل أن تُفترس ويعلو صوت الموت، دوت إطلاقة نارية في الفضاء، شرخت عالم السكون، وهزت أسارير الكلاب، فأدخلتها في دوامة هلع وحيرة وانكسار. سقطت الكلبة الصفراء تئن في جوف الصمت، تتلوى بصوت هزيم، تدور حول نفسها كمصراع خشبي، حتى خفت نبراتها واستكانت أنفاسها على الرصيف، خمدت كجثة هامدة تحت عمود كهرباء.

انفضت المجموعة المهاجمة عن البقرة المفزوعة، ودوت إطلاقة أخرى، سقط على أثرها الكلب الأسود، يتلوى زاحفًا بحركات لولبية، حتى استكان في زاوية من ركن الشارع، كاتمًا أنفاسه. تشتتت الكلاب، وصدى الرصاص يتبع أثرها،

يمـزق أشـلائها واحـدًا تلـو الآخـر، تنـاثرت أجسـادها بـين منحنيات الطرق.

تجمـع النـاس علـى أثـر ضـجيج الإطلاقـات ونبـاح الكـلاب المسـعورة، يبصـرون حـال البقـرة المنهكـة، فـي وضـع مـزرٍ، فيمـا تبعثـرت الكـلاب سـكرى، متخبطـة فـي وحـل الهزيمـة. كـان مـن حسـن حـظ البقـرة انتبـاه شـرطي الحراسـة إلـى خوارهـا الفجِـع ونبـاح الكـلاب المفترسـة، فمـد بعمرهـا قبـل أن يُقصـف، وتكـون وليمة دسمة لتلك الكلاب الجائعة.

نهضـت البقـرة المفجوعـة، والهلـع ينـزف مـن مـواطن الجـروح والخـدوش التـي أصـابتها. طنـين الرصـاص نخـر أذنيهـا، وعلـى فجاعـة الفـزع نعـر خوارهـا خلـف خـوار أقرانهـا، وهـي تجـر جسـدًا أجـدبًا بخطـوات عرجـاء وئيـدة، تاركـة خلفهـا كتـل الـروث تتسـاقط كـأقراص دائريـة علـى مسـربة الطريـق، تعبيـرًا عـن حجـم الفـزع الـذي أنهـك أحشـائها، والرعـب الـذي خـزق أوصـالها... وعلـى أثـر هـذا الحـدث المرعـب، والـذي كـان مـن الممكـن أن يكـون ضـحيته بشـرًا، تـم إبـادة الكـلاب السـائبة في أرجاء المدينة من قبل دائرة الصحة..

# 3- نبع الحنان

يحفّ خطواتها الارتباك، وهي تجري مهزوزة الأسارير بين أروقة الدار، تتبع إيماءة حسّها الرهيف بخطوات متعثّرة، جراء وهمٌ أغشاها، تروم اجتثاث نجواها من فكّ حيرةٍ صمّاء أسرت هواجسها. وهي تمشي تهجس بها قمرا يتهادى بين سحب الغيوم، تتهادى بين جدران الوهن، تتأمل نافذة حلمها المعلّق.

استحوذت على شعب تفكيري، وهي تهفو ببراءة خلف هاجس ظنٍّ أحاط بها. أحيانًا تستأثر بكفاف الثوب، فتنكبّ على وجهها، فينهمر بكاؤها سيلاً من نشيجٍ وآهاتٍ مؤلمة، تشدو بشجوٍ ملؤه شقاء. تستغيث، تنهض، تجد ذاتها مقيدة بسلاسل الأنين، كحمامةٍ تنوح أسفًا على وحدتها وغربتها.

صورة خريفية راغت في وجهها، دموع ترقرقت في مقلتيها، أنسلت على وجنتيها الموردتين، استباحت جمّار الخدّ كلآلئ البرد وهي تغشي تويج ورد وجنتيها... لم تقاوم جلدها، وهي تشهق برنيم صوتها النغم:....

– ماما... ماما... ماما...

لا تدري أيّ وجهة تستقل، ولأيّة جهة تمضي. فكرها قيدُ حيرةٍ شلّت قدراتها، وأسرت هواجسها فيضَ حنان أمّها. كدميةٍ إلكترونية تدور في أرجاء الصالة، تبحث عن ثلمة عطف، عن رمق أملٍ يسعف قلبها المُلك بدبق الحزن.

تمشي، وقناديل أوصافها تشعّ نورًا. العطر يفوح من عناب ثغرها، يمتدّ زكيًّا مع قصيد قوامها الرشيق. نورٌ يشعّ من بريق عينيها السوداوين، كوهج مصباح يتلألأ في فضاء العتمة. شعرها كرستالٌ لامع، منسلّ على الأكتفين، وقلنسوتها شريطٌ فضيّ يختلج بهاء النور. تهجس بشفتيها تويج وردةٍ

جورية، تحيطان ميسم قوادمها البراقة.

وهي تخبّ بمشيها، كأنّها زهرةٌ ترتجي دفء الشمس. ترتدي ثوبًا مزركشًا يصدح بألوانٍ قزحية، يوسط خصرها حزامٌ فضيّ يتناغم سحرًا مع شريط قلنسوتها ولون حذائها.

لم أتمالك نفسي أمام حيرتها الجامحة، وهي تبدو بطوفانها الواهف كشعلةٍ نورانية منكسرة بين الرجاء والوهم. هجست بمشاعري تلفظ حمم عواطفي على خديها، امتدت ذراعي بشغف إلى إبطيها، حملتها، ضممتها إلى صدري بدفء وحنان الأبوة. قبّلتها، داعبتها، مسحت دموعها، ولأقوّض حيرتها، همست بأذنيها قائلًا:...

أنا هنا... لن تضيعي بعد الآن...يا إمارة... يا حبيبتي ...لا تبكي... ماما ستجلب لك زجاجة الحليب.... هيا كفي بكاء... هيا نمضي إليها....

خفتُ من روعها ومن حدّة بكائها، لكنها ظلّت تتلفّت في الاتجاهات بعينيها الساحرتين، تبحث عن وسادة حبٍّ وأمان، عن نغمة حبورٍ تكشف حيرتها، عن كأس عطفٍ يعينها على نأيها، عن نبع الحنان، عن رمق أمان، عن الطيبة المباحة، عن "ماما" الحبيبة.

رغم أني حملتها على صدري، إلا أنها بقيت في ثنيها تكلّ من الشك، لحظاتٌ ثقيلة جعلتها تعاني من طيّ الحقيقة، وهي تدور بعينيها الدامعتين يمينًا وشمالًا، تبحث عن "ماما". ألهبت زغب الفؤاد، وزادت من دفق نبضه. هجست بتأخّر والدتها، فنفضت شقاء الصبر كدخان أنينٍ اجتاح مشاعري الراكدة، وكبّلتني بفيض همّها وغمامها.

رعدٌ أهاب نجيم إحساسي المضنك بموجات نحيبها، بدت الرتابة تطفح في نصاب الأمور، كأنّ الأشياء تسامت في رقائق الحياة، وأضحى البيت قفارًا من وجهة نظري. شعرتُ

بـالأرض وقـد توقّفـت عـن الـدوران، فـي حـدود الصـمت والجمـود القابع في وجهها.

كـأنّ الـزمن اسـتنفد دقائقـه، وتـاه الفكـر فـي مبـدأ الخطـوة، وأظـلّ القـدر مراكـب السـفر. أضـحى الوضـع مرعبًـا فـي تلـك المتاهـة، جُـرّدت الألفـة مـن الوجـود، ومـن العلاقـة الآنيـة بينـي وبينها.

جعلتنـي أشـعر بتقصـيري تجاههـا، وكـاد قلبـي المتـدثّر بآلامـه المسـهبة أن يتوقّـف، لـولا أن شـعّ هـلال أمّهـا فـي الأفـق. لحظـاتٌ عجـاف، غرسـت مخلـب نارهـا فـي عنقـي، كـدت أختنـق، لـولا صـدح صـوت أمّهـا المتهـادي فـي الأفـق، ليشـعّ أمانًـا عبـر أثيـر صوتها الدافئ، الذي أغشى قلبها كنسمة صبحٍ باردة:

– حبيبتي إمارة... أنا قادمة.

ومـع سـماع الصـوت، انفرجـت الغمامـة، وارتسـمت علـى وجههـا ملامـح الرجـاء. دبّ الفـرح فـي ربوعهـا، فرشـت الابتسـامة علـى ثغرهـا، طاقـة كهربائيـة أسـرجت السـرور فـي قلبها، ألهمتها بهجةً وحبورا قوضا حيرتها.

مـا إن بـزغ هـلال أمهـا مـن خلـف السـتار، حتـى صـارت تناجيهـا بـروح مرحـة، تسـمعها هـديلها وغريـد مناغاتهـا، أراقـت الـود والحنـان فـي باحـة صـبرها، وأحسسـتها بلـين عاطفتهـا وأشواقها وهي تناديها:.....

– حبيبتي إمارة، لا تبكي... سأأتيك بزجاجة الحليب.

صـارت تضـحك، واخـتلط شـجو بكائهـا بقهقهتهـا وشـهقاتها ومناغاتهـا، تهتـز فـي حضـني وبـين ذراعـيّ كالنـابض الحلزونـي، فرحـة جـذلى كـأفراخ الحمـام، تكتكـت، تزقـزق، وتلألأ سراج وجهها بسعادة سرتها.

كنـتُ قـد استسـلمتُ للقـدر الـذي قيـدني، أهجـس بهـا، طعنتنـي

بنصل براءتها في صميم المشاعر. ألمّ بي الجرح، نزف غيرةً في محبتي وخجلاً في وجاهتي، تحسست ذاتي المنكسرة، جزلت هيبتي وأبوتي، وجعلتني أتأفف من وخز الألم وهو يسري في عروقي الجافة كسيل من الندم، مزقت صور الحماقة المعلقة على جدران كبريائي.

أهجس بالطبيعة قد فرضت سحرها على لون إحساسي، جعلتني أتراجع عن حالة التزمت والتشبث بالسلوك العابث، جعلتني أواجه الأسئلة التي طرحتها على ذاتي، باحثًا عن أجوبة لها في طابع قراراتي.

أحسستني بحقيقة حجمي وقباحة شكلي، أمام تلك البراءة التي حجّمت هيبتي، أوحت لي صغيرتي بأن الإنسان لا يحتاج إلى قوة لينتصر. ها أنا أُهزم أمام براءتها بتلك العصا الرقيقة الطرية التي هفت بها على مكامن الألم، وتركت أثرًا في النفس والذاكرة، سيمضي معي حيثما حييت.

إنها إرادة الله، الجزاء بقدر العمل، فعادل الكيل بالميزان، ونضح كل إناء بما فيه. أفرزت الحياة الحسابية حلولًا جذرية للحالة المستعصية، جادت بثقالها، لتنبثق سعادة واقعية مقابل زيفٍ كان يساورني ويغشيني. سعادة لا بد من تفعيل أسسها، فبخلافها ستبدو مخارج الحياة ضيقة في أطرها الرمزية المباحة. لذا، لا بد من أن أتبع سياسة جديدة تجاه صغيرتي وأسرتي، تلك التي مدى بصرها لا يتعدى أطر حدودي، تلك التي تتذرع إلى الله أن يصون قدري في حدودها الآنية.

جاد سوط العقاب، لابتعادي عن حدود الأسرة، لانشغالي بأمور ليست ذات أهمية، أمور تافهة كانت قد شغلتني عن أسرتي، أنستني ذاتي ومكانتي.

تلك الأسباب جعلت العلاقة بيننا واهية، لم أكن أبصر لون القدر الفاقع الذي يجمعنا، إلا بعد أن بعثرت صغيرتي بعصا

البراءة جمرة القطيعة تحت قدمي، لتلسعني بها، فانتبرت مشاعري، وتبددت الغشاوة عن نافذة الصبر قبل انزواء شمس الحب في بطون الغسق.

كان لا بد من صدمة تهزني، تعصف بأوراق الحيرة المصفرة، قبل أن تعصف ريح السخط بخيمة السعادة. ببراءتها أحرقت جوانب التقصير عن بكرة أبيها، بددت الوهم والزيف عن حدود الأسرة، لتفيض سلال الشوق بالأمل والسعادة من جديد.

بعد تلك الحقبة التي انقشعت وولت، تغيّر الحال، وبالذات مع صغيرتي التي كنت نادرًا ما ألاطفها وأداعبها، خاصة خلال عودتي المتأخرة للبيت وأنا مرهق بالكلل والملل. كان الروتين قد سفّ جدول أعمالي اليومية برفقة رفاق السوء، وكان الإحساس مكفوف البصر، والمشاعر مقيدة، والمحبة مبعثرة بين كوات الخجل، وأنا أتسكع خلف بنات الهوى والنوادي الليلية.

تلك كانت مهازل أبوتي، اصطبغتُ بها عبر تلك المرحلة المريضة من العمر، استطاعت صغيرتي أن تنسفها ببراءتها، أن تمحيها عن جادة الطرق. تلك غيمة انقشعت لحتفها، انتبرت مخالب الغيرة تفتك بخدود الوهن، وأفرتت ينابيع الأبوة في سهول الأسرة، لتسقي بزلالها تلك العروق الظامئة.

وأنا في سرحاني وإسهابي الفكري، أبحث فيها عن لغز الحقيقة والسعادة المغيبة... كانت صغيرتي قد انسلت من بين ذراعي، كسمكة تنتشل ذاتها، متشبثة برقبة أمها. هفت برغبة جامحة، مرتمية بأحضانها، صارت تشم رائحتها، تلعق صدرها، كأنها عطشى لنبع الحب والحنان.

استكان غضبها كسكون العاصفة، وانقطع أنينها كانقطاع الوتر، طفح الابتسام يثري وجهها، واستعادت هدوءها،

كـوردة الصـبح تحـت دفء الشـمس، محمـرة الـوجنتين، تـزين صدر أمها.

بعـد أن التمسـت الأمـان، أغمضـت عينيهـا، لتنـام قريـرة العـين فـي رحـاب حضـن والـدتها. نامـت، وتركـت دمامـل النـدم تتفجـر بأحضاني، لتعيدني إلى رشدي ومكانتي.

بسـلوكها وقلقهـا، كانـت قـد غرسـت الحكمـة فـي ذهنـي، غسـلت بـدني مـن كـل رجـس رجـيم، ألهمتنـي أسـرار السـعادة الحقيقيـة، تلـك التـي كـدت أنسـى شـكلها ولونهـا، جعلتنـي أشـعر بقيمـة ذاتـي وأبـوتي، جعلتنـي أعـرف جيـدًا أيـن أضـع خطـوة القدم.

إنهـا إرادة الله، قبـل أن تكـون إرادة صـغيرتي، لقـد أصـلحت شأني وذاتي:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ صدق الله العظيم.

## 4- فرصة هدف

لم يكن حجمي الصغير ونحول جسدي عائقًا أمام ولوجي عالم كرة القدم، تلك الأمنية التي لازمتني منذ نعومة أظفاري، ونمت في صمتٍ داخلي حتى أورقت أغصان الرغبة تحت شمس الصبر الحارقة.

كم راودتني الرغبة في مشاركة أولاد الحي شغفهم ولهوهم، لكن محاولاتي المتكررة اصطدمت بجدار الرفض الصلب. تعنتهم المستمر حال دون تحقيق حلمي الغض، حتى باتت علاقتي بهم متشابكة بخيوط العناد والتعقيد، أتيه في ظنونهم، وأتخبط في واقعهم الذي نصب بيني وبينهم حاجزًا منيعًا من الإنكار.

سلوكهم الجارح كان كالسدّ المنيع أمام نمو موهبتي، يحمل في طياته شيئًا من الحنق، متذرعين بضعف بنيتي وهزال جسدي. بسيف الغل قطعوا حبل الوصل، وجعلوا لبنة العلاقة بيننا هشيمًا تحت أقدامهم، فمحوا برادة الأمل من رقعة الرجاء، وغالوا في القطيعة بإصرارٍ مؤلم وتحدٍ قاسٍ.

وجدت نفسي أتهاوى في وحدةٍ موحشة، أتمرغ في وحل التيه والخذلان، مكبّلًا بقيود العجز، عاجزًا عن تسلق سلم المجد برفقة أبناء الحي. سلوكهم الجارح نخر ثقتي بنفسي، وألقى بظلال اليأس على محاولاتي، حتى بتُّ أعيش على جمر الحسرة، أتقلب بين الوحدة والانكسار.

في الوقت ذاته زدتُ هوسا وولعا باللعبة؛ زدت ارتباكا نحو ذاتي الأسيرة، كأنّ كياني وتكويني الخلقي هو المانع الذي يحيل أحلامي إلى مجرد أوهام مدفونة بالثرى، كأن الحلم لم يكن سوى سراب يتلاشى في مهب الريح.

غدت علاقتي بالكارت الأحمر الذي يرفعه زملائي في وجهي علاقة مألوفة وواقع حال، كصداقة مشوبة بالحنق والقسوة، يختزل فيها صبري إلى مرارة ذائبة في صمتي، لا يتذوقها سواي. حالة حزن داكنة ظللت جفنيّ، لازمتني زمنًا، وانتزعت البهجة من قلبي، حتى بتُّ أتنازل عن كبريائي، راضيًا بصيغة الانكسار، متخفيًا خلف ستار الرضوخ لقرار الجماعة.

كنت أحيانًا أجهش بالبكاء، فألوذ بعيدًا عن أنظارهم وتعليقاتهم الساخرة، كطفلٍ فقد دميته، أختبئ في جحري، صامتًا في أعماقي، أجرع مرارة الصبر على مضض.

تلك الوقائع لم تبرح تغزو مشاعري بألسنة من نار، تصقلني في محراب التصبّر، حتى تحوّل انكساري إلى قوة، إلى دافع وإلهام، أقحمت به ذاتي في ميدان الكرة بعيدًا عن جدل المجموعة. بتُّ أخطط بفكر متقد، وبعزم يناطح عزائمهم، باحثًا عن بصمة إبداع تحمل اسمي، وتُثبت أن الحلم لا يُقاس بجسد، بل بإرادة لا تلين.

.

بتُّ أبحث عمّا يغيثني، ما يدفعني لبدء الخطوة قبل أن تخبو فورة أحزاني. رغبتُ في رسم خارطة طريق واضحة المعالم، تقودني نحو أهدافٍ تفوق ما راودني من أحلام، متطلعًا إلى سلم الشهرة، متتبعًا الغاية، باحثًا عن بصمة شخصية تميزني.

صرت أتلّمس تلك الحالة، أراها تتراقص أمام عينيّ كزهرة توليب مغنّجة، تتمايل في شفق الألق، رغم الغشاوة التي كانت تغشي ثقتي بذاتي. ما إن تبهجني، حتى تختفي خلف وشاح الحسرة والألم.

ومع الصبر، بدأت الحالة تدغدغ عزيمتي، جردتني من

شبح الخمول، وأوقدت في داخلي شموع الأمل، دهنتها برغاء الحلم، وأشعلتها بالمثابرة والعمل الجاد، بعيدًا عن أعين من يجحف بقدراتي، ويقلل من شأني، ويحكم على إمكاناتي الفتية بالفشل.

تلك الأمنية لم أجد من يؤازرني فيها سوى والدي، الذي منحني معطف عطفه وحنانه. ورغم إدراكه لمحدودية إمكاناتي الفنية والجسدية مقارنة بزملائي، إلا أنه لم يثنِ عزيمتي، بل جارى رغباتي بصمتٍ حنون، دون أن يُظهر شكوكه الداخلية في نجاح محاولاتي.

بتُّ أتابع مباريات الدوري الأوروبي عبر التلفاز، وأغوص في برامج السوشيال ميديا، خاصة على اليوتيوب، أستمتع بتكرار الحركات الفنية التي يتقنها أمهر اللاعبين، وأحفظها عن ظهر قلب. وفي اليوم التالي، أحاول تطبيقها قدر المستطاع، مقلدًا إياها بتفانٍ، لأغرس المهارة في عضلة القدم، وأصقل مرونتها. هكذا نما هذا الولع في خاطري، حتى غدا من أولويات اهتماماتي، ومن أعذب ألحان عزفي على وتر الطموح.

شيئًا فشيئًا، نمت بذور المهارة في قدميّ، وبدأت أسندها بالتمرين المكثف، أرويها بالجهد والمثابرة لتترسخ وتزهر. تحفزت ثقتي بنفسي، وارتفعت أشرعة التحدي حتى بلغت حدّ الوله، فأصبحت أكثر قدرة وتحكمًا، وأكثر ولعًا بالكرة. بدأت أكتشف أسرارها الخفية، طبيعة دورانها، ودهشة انسيابها، حتى نما بيني وبينها عشق سرمدي، إحساس بالألفة والتناغم، كأن القدم وسطح الكرة يتراقصان بانسجامٍ رقيق، يتماشى مع خفتها ورقتها.

ومع مرور الزمن وتكثيف التدريب، نضجت حكمتي، تعمّق ولعي بالكرة، وتطورت قدراتي الفنية. بلغ التناغم بين

القدم والكرة ذروته، تحولت العلاقة من مجرد رغبة إلى ألفة، ومن ألفة إلى إعجاب، ومن إعجاب إلى حوار وتلاقٍ حميم. صارت الكرة صديقتي، ورفيقة دربي، عشقًا استثنائيًا يسحرني، يشغل تفكيري، حتى بتُّ أول المعجبين بإمكاناتي الفتية.

أدركت الكرة لغز المهارة في ذهن قدمي، وتطورت العلاقة بيننا لتدخل مجالًا فنيًا وتكتيكيًا، إحساسًا مرهفًا بالمهارة. نما ذلك الشعور في قدمي، كما لو أن الكرة تبادله عشقًا، تتبع مرونته، وتستجيب لنبضه. غدت الألفة بيننا تتجاوز الروتين، تحولت لحوار صادق لتستوعب وتتفهم مقاصد ذهني، مثلما صرت أتوقع نواياها، وأقرأ دحرجتها كما يُقرأ الشعر في لحظة إلهام.

هكذا تحولت تلك العلاقة بيني وبين الكرة من مجرد رغبة وألفة سطحية؛ لصداقة حميمية، لعشق سرمدي،، لولع هجيني، صار عشقي لها كعشق الليل للقمر....

ذلك الولع استحوذ على تفكيري، جعلني أغوص في إرهاصات عزف الكرة، أذوب كفكرة في محاكاتها، ودحرجتها، وطبطبتها. صار التناغم بيني وبينها يرتقي إلى درجة الألفة، حتى باتت تنجذب إليّ بنهم، دون عناء، تهيم بلسعة القدم، تلتصق به ويلتصق بها. أدحرجها برواء الفكر وعطف النظر، فتمضي كما يشتهي القدم. أصبحت سليلة العقل والذات، غرست في نفسي بذور الثقة، حتى تيقنت من قدراتي الفنية.

لكن هذا الشغف الكروي أنساني جانبًا مهمًا من اهتماماتي المدرسية، فأصبحت أقل نشاطًا وعلماً مما كنت عليه. تراجع مستواي الدراسي، حتى بات دون مستويات زملائي، مما زعزع قناعة الأساتذة بقدراتي العقلية. فانهالت عليّ التنبيهات

المتكررة من إدارة المدرسة، وأحيانًا بلغت حد التوبيخ والتنكيل والصرامة، حتى أُجيز لهم طردي أو منحي فسحة استراحة طويلة.

ومع ذلك، لم يثنني شيء عن هدفي، ولم يمنعني من الهيام بمعترك الكرة. واصلت تحدي الظروف، ورسمت مخطط الهدف ومنحنياته على صفحات الذهن، وجعلته تحديًا لي ولزملائي ولكل من شكك في قدراتي. تحسست إمكاناتي العقلية، وأدركت ذكائي في فن اللعبة، حتى نبتت الثقة في نفسي، رغم أنني لم أختبر ذاتي بعد في ميدان التحدي الحقيقي.

لا أذكر عدد الأيام والشهور التي قضيتها في التدريب، لكنها لم تكن قصيرة. ما أذكره جيدًا هو إصراري الوحيد على النجاح، إصراري على تجاوز العقدة، وإثبات الذات، والتمسك بناصية الفلاح، مبذلًا قصارى جهدي لبلوغ الغاية المنشودة.

ما كان ينقصني سوى اختبار قدراتي الفنية في مضمار حقيقي، لأثبت مسامير الثقة على لوح القدر. كنت أبحث عن ضالتي بين قوائم الحظ وعيون المدربين، أتعنى للأماكن البعيدة، لأكسر قيد الوحدة، متتبعًا ومضة الأمل في نظرات الزملاء ولسان الجمهور، متأملًا أن أجد لنفسي مكانًا في أي فريق، حتى لو كان في ذيل الترتيب.

ذهبت أبعد من حدود اللياقة واللباقة الرياضية، حين سعيت وراء وساطة تنتشلني من وحل الهوس والتمني. بحثت عن الفرص في أعماق الرغبة، وفي وجوه الحقيقة التي أترجاها. طرقت أبواب الغرباء والمعنيين، ممن لا تربطني بهم صلة أو معرفة مسبقة. كان لا بد من اقتحام تجربة تعزز ثقتي بنفسي.

ظل الفشل يناصب الحظ، وربما كان لقصر قامتي وضعف عضلات ساقي دور في عدم اقتناع المدربين بإمكاناتي. لكنني كنت مؤمنًا بأن مغامرة واحدة كفيلة بإظهار قدراتي في المحك الحقيقي.

ولم تطل فترة الانتظار، حتى جاءت الفرصة على طبق من ذهب، حين تغيب أحد أبرز مهاجمي فريق محلتنا في مواجهة خصم قوي، اعتاد فرض هيمنته علينا. منحني الحظ فرصة العمر، التي قد تغير مجرى حياتي. تمسكت بها بكل ما أوتيت من عزيمة، مقدّمًا نفسي للمدرب، ومنتشلًا إياه من حيرته، ليعوض النقص الحاصل في فريقه.

في الحقيقة، لم يكن أمام المدرب خيار آخر؛ فقد غاب ثلاثة أو أربعة من عناصر الفريق الأساسيين، فاضطر لقبولي، دون أن تكون لديه فكرة واضحة عن مهاراتي.

ما إن وطئت أرض الملعب، حتى تملكتني نشوة غامرة، غسلت آثام الصمت الطويل، وحلّقت بي على أجنحة الفرح نحو الشمس. كان عليّ أن أستغل الفرصة، لأذيب ثلوج الهم، وأجزل عبث الشك. لقد صرفت جلّ طاقتي، وتنازلت عن اهتماماتي الدراسية والاجتماعية، من أجل هذه اللحظة. بحثت عنها في بطون الظن وآفاق الحلم، وطرقت أبواب العسر لأبلغ غايتي.

التجربة دعتني لأمثل فريقًا لم يتقبلني سابقًا، فشعرت بنشوة النصر، حلّقت بي عاليًا، وألهبت أرضية الملعب بفني وألقي، كضوء كاشفات الملعب.

ومع صافرة الحكم، تحركت جيوش التحدي في مرونة قدمي، لتزيح هالات الظلام عن العيون الغاشية، وتخرس ألسنة المشككين، وتعرّي نوايا المغرضين والحسّاد الذين لسعتهم سعادتي، والمنافقين الذين أزعجهم وجودي كلاعب

أساسي.

كانت نشوة لم أذقها من قبل، هجست بها كلون البنفسج في تويج زهرة اللافندر، شحنتني بالمثابرة، وجعلتني أنسى أنني أخوض أول تجربة حقيقية. صاحبتها رهبة خفية، خلخلت ثقتي في البداية، كضباب الصباح يغشي الرؤية، خاصة أمام جمهور غفير له باع في التحليل والكرة.

لكن تلك الرهبة تبخرت مع صافرة البداية. لم أترك للشك موضعًا يعكر صفو مزاجي، ولم أسمح للقلق أن يقيد ثقتي. ذلك النور المشع في عقلي استثار مرونة قدمي، ومحق الرهبة عن فضاء الكرة.

بدأت أتحرك في ميدان اللعب كما تبدأ الحياة بنعومة أظفارها، متكئًا على التوجس والحذر كعكازين، أتنقل عرضًا وطولًا، واضعًا الحلم نصب العين، متمسكًا بالرغبة والتحدي. كل خطوة أخطوها كانت بحثًا عن لغز الكرة، عن عقدة الألفة بين القدم والكرة، متكئًا على الجهد والطاقة، فإذا خفَ الجهد استعنت بالطاقة.

كانت الفكرة تتدحرج أمامي مع كل حركة، تعينني على فك شفرة اللعبة، على إيجاد صيغة تفاهم وحوار بين الكرة والقدم. أصبحت مسارات تحركاتي في الملعب من أولوياتي، أبرز ما أخفي من مهارات وقدرات فنية أتقنتها. بدأت ألعب بثقة عالية، أحاكي الكرة في مساراتها، أداعبها براحة قدمي، أمنحها ثقتي، فتبتسم لي، تتراقص تحت القدم فرحة جذلى. ما إن أتأملها، حتى تلازمني، تصاحبني، ترافقني. أوطدت الثقة بالنفس، وكشفت لي عن عشق حميم يجمعني بها. غدا التناغم بيننا مرهفًا بالحس واللمسة، أعينها على الحركة وتعينني على السيطرة.

صرتُ أحف بها الأرض، أدحرجها برفق ورغبة، غدت

تقرأ ما يدور في سطور الذهن، تستهوي فكر القدم قبل أن أقدم عليها. أضحت العلاقة بيننا جدلية مثالية، تميل حيث تميل مرونة القدم، ترقص على وقع الفكرة والمهارة، تطاوع لمساتي بحنية، وتستهيم برقة إحساسي بالحركة.

غدت بيني وبينها جاذبية ناعمة، فيها شيء من المغناطيسية، فما إن تبتعد عني حتى تعود بشوق ولهفة، لتلتصق بخف القدم. لا تحيد عن مساراتي قيد شعرة، تستهوي إرادتي وتطلعاتي بحرفية، كأنها تقرأ ما يدور في سطور فكري، تستجيب لمهارة القدم، لا تخالف رغباتي، ولا تعاند أهوائي. ملتصقة بالقدم كالمرونة التي تغريها، كأنها خُلقت لتكون امتدادًا لذاتي.

صارت الوشائج حميمة بين الكرة والقدم، بحيث يجتمعان على آصرة الفن واللغة والأبداع مع كل مناورة أو مناولة أبديها، أضحى التناغم بيننا على أشده، أحاورها، تحاورني. أراعيها، تراعيني. أداعبها ، تداعبني. تلتف حول رغبتي، تتحرك حسب الأهواء والغاية، تذهب بعيدا لتعود إليَّ بشوق ولهفة، شغف أكبر مما كانت عليه، يلتف حولها وتلتف حوله، كأنها مرتبطة بالقدم بميثاق عهد وعبودية. ما أن تدرك غاية القدم؛ حتى تستميل لأهوائه، فتزيدني سحراً وألقا وتحررا في أرجاء الملعب، تزيدني ثقةُ ويقينا بقدراتي ومناولاتي.

أضحت لغة الحوار تطرب سماع الجمهور، للشغف الدائر ما بيني وبين الكرة. ما فتئت أضحت لغة الحوار لغة عشق وتخاطر وهيام وثقة متبادلة، ترجمت بصدق العلاقة التي تجمعنا..

مع مرور الوقت، تحولت علاقتي بالكرة إلى تحدٍ وإصرار في مواجهة الخصم. تجاوزت لغة الفن والمهارة، لتغدو لغةً لا يفقهها سوى الجمهور، لغة تخاطر وبرمجة بين

العقل والكرة؛ بإيحاءٍ من الفكر تستجيب لدوافع القدم، وبنظرةٍ من العين تفسر خواطر الذهن، فتنساب لإرادتي دون عناء، دون أن أجهد نفسي في محاكاتها.

بدأت أسمع تصفيق الجمهور وهتافاته الصاخبة تشد من أزري، وصار الملعب يزداد هيجانًا مع كل لمسة أضعها على الكرة، مع كل تمريرة دقيقة أو تسديدة نحو الهدف. مرةً بعد مرة، ازددت ثقةً ومعرفةً بمسالك الهدف. أحيانًا أشعر أن الكرة تكافئني حين تتدحرج أمامي وفق أهوائي، وأحيانًا أنا من يكافئها حين أعدل انحرافها. ارتقت العلاقة إلى مستوى القيادة والانضباط، فخلخلت بها صفوف الخصم، وشققت مسارات بين تكتلاته، حتى تقوضت ثقته بنفسه.

ومع تصاعد الهتافات باسمي، وفرحة المدرب بما أقدمه، شعرت بغبطةٍ تكتنفه، لمحتها في تشجيعه المستمر، وفي منحي الثقة والحرية الكاملة في تحركاتي وتوزيعاتي المربكة للخصم. أحسست بمسحة أمان تغشى وجهه ووجوه الزملاء، فدفعتني تلك الثقة إلى بذل أقصى جهدي في إدارة اللعبة. كان يشحن طاقتي بالدافعية، يتكرر صوته في أذني: "أحسنت يا حسن، سدد يا حسن".

ومن فرصةٍ مواتية، لم أدعها تفلت من قدمي أو تُغفل ذهن الحارس، سددت ضربةً مباغتة من خارج منطقة الجزاء، ذللت بها المسافة، ومنحت فريقي هدف التقدم الأول، حين استقرت الكرة في الشباك على يمين الحارس.

كان هدفًا مباغتًا، جميلًا، هز أركان الخصم والملعب، شق السكون بهدير الأبواق وأهازيج الجمهور. تعالت الأصوات تشدو باسمي: "لتهتم يا سالم، حسن نزل بالساحة"، واده طمأنت الحارس سالم.

بدأ الفريق المنافس يستشعر خطورتي، فصار يراقب

تحركاتي عن كثب، بأكثر من لاعب، يتبعون خطواتي كلما أمسكت بالكرة، مما أتاح لزملائي فرصة التحرر والتقدم نحو الهدف.

تسيدنا أرجاء الملعب، كثفنا الهجمات والتسديدات من اليمين والشمال. ارتسمت ملامح الانكسار على الخصم، وتراجع بلا مناص، فاضطر إلى تغيير منهجه، واعتمد أسلوب الخشونة الزائدة، في محاولة لتجنب خسارة ثقيلة.

الخشونة بحد ذاتها كانت مصدر رعب لي، إذ كشفت هشاشة جسدي وضعف عضلاتي البدنية. لكننا حولنا هذا التحدي إلى دقة في الأداء فاقت توقعاتهم، عبر تمريرات سريعة متقنة أربكتهم وأصابتهم بالذهول. فتحولت المباراة إلى صراع محتدم، كصراع القط والفأر؛ نركض بالكرة وهم يلاحقوننا، يحاولون كبح جماحنا مستخدمين الخشونة كسلاح.

كنا كخلية نحل في تعاوننا، نبذل جهداً مضنياً، ثم ننسحب خلف الهدف لنفاجئهم بسوط غير متوقع. قابلوا محاولاتنا بندية عالية، وبخشونة مفرطة، لجأوا فيها إلى الضرب المتعمد وقطع الكرة بأساليب عنيفة باستخدام الشحط والمقص، كالفكين المنطبِقين. حاولنا قدر الإمكان تفادي احتكاك بهم، والإفلات من شباكهم.

استمرت المباراة على هذا النحو: هجوم شرس من جانبنا، ودفاع مستميت من طرفهم. وبدأت الخشونة تأخذ طابعاً عنيفاً، خاصة ضدي، وكأنني القطب الوحيد الذي أخلّ بتوازنهم لصالح فريقي.

قبل انطلاق المباراة، لمح الخصم بإمكانية الفوز، مغتراً بذاته بثقة عمياء، متجاهلاً قدراتنا، ومتيقناً من عبور قنطرتنا. راهن على ذلك، كما دلّت تعابير وجوههم الاستفزازية. لكن عدوانيتهم منحتنا فرصة التحدي، فكانت المفاجأة صاعقة،

كالت لهم الصاع صاعين، وبددت كبرياءهم إلى شراشير ورق تعبث بها الرياح.

وقبل نهاية المباراة بدقائق، سنحت لي فرصة ذهبية. تقدمت بالكرة، راوغت المدافع المتقدم، ثم الظهير الأيمن، فالمدافع المتأخر، ودحرجت الكرة من بين قدميه، لأجد نفسي في مواجهة المرمى. وقبل أن أسدد الكرة، تلقيت دفعة قوية من الخلف أفقدتني توازني، فاصطدمت بالقائم القريب بشكل مباشر ومؤلم، تاركة شرخاً عميقاً في عضلة الكاحل الأيمن، وكدمة في عضلة الساق اليسرى. تزامنت صرختي مع صافرة الحكم، الذي منحنا ضربة جزاء مستحقة، وكارتاً أحمر للمدافع المعتدي.

رغم الدموع المنهمرة، غمرتني ابتسامة النصر بملمس من حرير، وسعادة ناعمة ملأت قلبي، دهنت حناجر الجمهور بالفرح. وصلت أصداء مهارتي إلى الصحف والشارع، وتلألأت صورة النجاح على وجوه الزملاء، خاصة المدرب الذي تألم لخروجي، وعبّر عن مشاعره الجياشة بكلمات ثناء ومديح، مؤكداً على عودتي السريعة لصفوف الفريق.

إصابتي لم تمنع الفرح من أن يرسم إشراقة الحلم على وجهي، بعد أن تحقق الهدف الذي صبرت عليه طويلاً. رأيته نجمة بارقة في سماء الكرة، يتأملها الجميع برجاء.

ورغم هذا النجاح اللافت، بدأت أفكر في هدف أكبر وأسمى. فطموحي لا يزال في بداياته، والطريق إلى القمة يبدأ بخطوة. ما تحقق كان أول الغيث، فالأهداف تكبر وتسمو مع العطاء. وكما قال تعالى: "وإذا عزمتم فتوكلوا".

## 5- المتسول

لم يخطر بباله قط، أن نمط حياته الرتيب الذي اعتاده منذ نعومة أظفاره، سيشهد تحوّلًا غير متوقع. لم يتصور أن عجلة الأيام ستدور به عكس اتجاهها، لتواسيه وتنتشله من قاع زمنه وأزمته. هناك نقطة انعطاف، حيث يتنفس جذوة صبره المتقدة، تمضي به نحو التتويج، نحو شمسٍ لم ترأف به من قبل، لتبدّد الغمام عن رأسه إلى الأبد.

لقد عاش حياة زهدٍ منسية، بعيدة كل البعد عن أعين المسؤولين واهتمام المعنيين بالإنسانية، حياة راكدة كركود المياه الآسنة، حتى باتت لا تعني له شيئًا، بعدما اعتاد على استنشاق نتن قروئها. حياة خاملة، مملة، بلا رونق، يلفّها جوٌّ من الذل والمهانة، لا تُقنع أحدًا ولا تُلهم روحًا.

منذ ولادته بلا مأوى، ترعرع في الأزقة والشوارع، وتكفّلت الفاقة بشقائه، باحثًا عن سترٍ ولقمةٍ تسدّ رمقه. لم تكن حياته خيارًا، بل فرضًا قاسيًا من القدر. لم يعرف فرحًا حقيقيًا يبرّر وجوده، ولم يلمس شكلًا من أشكال الإنسانية، ولم يهجس بذاته كقيمة تستحق الاحترام والتبجيل. كان الفقر قد جرّده من بهاء إنسانيته، وقيّد علاقاته بالمجتمع، وأغرقه في دوامة من الصراعات والعُقد.

عاش غريبًا، جاهلًا، عازفًا عن أبسط تفاصيل الحياة، محرومًا من كل ما يجعل الإنسان إنسانًا. من الملذات والرغبات والتأملات، بل أنه لم يشعر إطلاقا بأن الحياة قد أهتمت به واهتدت لسره يوما ما على مر الزمن. فالأيام في قاموسه لا تُعد سوى محطات استراحة لعابر سبيل، تذكره بالطوفان القادم، والذي لابد من أن يدرك نهاية المطاف يوما

ما.

محطاتٌ يوميةٌ لا بد أن يجتازها، بروتينٍ صارمٍ من مأكلٍ ومشربٍ ومنام، كأيّ كائنٍ سائبٍ يتجول في الشوارع والحدائق العامة، تحت جلد الفصول المتقلبة، وفي مواجهة طقسٍ لا يرحم، متحمّلًا على مضض سلوك بعض البشر المبتذل، الذي لا يعرف للرحمة سبيلًا.

كان قد اعتاد الوقوف في وسط دوّار الزهور، عند تقاطع الطرق الرئيسية في قلب المدينة، حيث ترتعش سيجارته بين أصابعه النحيلة، تلك التي لا تكاد تُخمد نيرانها، كأنها فتيل أحلامٍ يحترق ببطء بين يديه، يستمدّ جمرها من حشا قلبه المضطرب. يقف صامدًا في ركنه، منتظرًا سحب الرحمة تمطر عليه، علها تخفف وطأة حر حياته، وتلين قسوة قدره.

كحجرٍ أصمّ جاثمٍ على قارعة الطريق، يتحدى قسوة الزمن وتجني العمر والأقدار، دون كللٍ أو ملل، منتظرًا رذاذ العابرين أن يلطّف أجواء صبره، متأمّلًا عطف الأغنياء المارّين، بفتاتٍ من صدقاتٍ وحسناتٍ تعينه على جلد الحياة ومشاقها المُرّة.

كنت قد اعتدتُ على رؤيته، على هيئته ورداءه، عرفته ببنطالٍ أسود رثّ، واسع من الصوف، وسترةٍ رمادية طويلة تتدلى حتى ركبتيه، تحملُ من الغبار والقذارة ما يكفي لتروي حكاية سنينٍ من التعب والعناء. لم يكن ينام إلا على الأرصفة ومصاطب الحدائق، وذاك اللباس الرثّ كان كل ممتلكاته، لباسه في النهار وغطاؤه في الليل، يقيه شرّ الطقس ونواميس الحشرات اللاسعة، بل إن الحشرات نفسها تكاد تنفر منه لزنخة رائحته وعطن ملابسه الرطبة.

الظرف القاسي الذي أحاط به جعله يرتع بثيابٍ بالية، مشبعةٍ بالرطوبة، ملتصقةٍ ببكتيريا العفن، على جلده

المتخشب من قلة الاستحمام. الأكزيما المنتشرة بين أصابع قدميه ورقبته، بفعل ديناميكية الحكّ والهرش المستمرة، كانت دلالةً واضحة على أنه نادرًا ما يصب الماء على جسده، أو بالأحرى، لم يجد حمّامًا يفتح له أبوابه.

تراه منبوذًا من المجتمع، ومن المنظمات التي تدّعي الإنسانية، تلك التي لا يسعها التفكّر بمصير هؤلاء الفقراء، مقارنةً باهتماماتها المفرطة بالحيوانات السائبة والجولات الترفيهية.

فتقٌ كبيرٌ يشق سترته الطويلة من تحت إبطه الأيمن حتى خاصرته، وكلما رفع يده، انكشفت بطانة سوداء باهتة، شاهدة على عُمرٍ من التآكل. لا يفارق نظاراته الداكنة ذات الإطار البلاستيكي، تغطي محجري عينيه، تقيه لفح الشمس وصقيع البرد، وتعينه على مواجهة الطقس القاسي أثناء وقوفه في العراء، متحديًا سخط الفصول وتقلبات الزمن، متشبثًا بخيطٍ رفيع من الأمل، لعلّ ظنونه تُرفأ باعتبارات نفسية تنقله إلى ضفة الأمان.

دائمًا ما ينزوي في ركنٍ من أركان الشارع، يستجدي قوت يومه، أراه كل صباح في ذات المكان خلال توجهي إلى عملي. الريح تعبث بشعره الأصهب، تمنحه هدوءًا وسكينةً وسط انطوائه وسرحانه. ملامحه تحكي عناءً شتى، وكل بقعةٍ من جسده تنطق ببؤسٍ عالق، يشرح جلد السنين وقسوتها.

في قرارة نفسه، يبدو متأزمًا من قسمة قدره، غير مقتنعٍ بواقعه، لكنه مجبرٌ على الرضا، فلا مناص من اجتياز المفازة كما تشتهي النفس. الخطوط المحفورة على جبينه وتحت عينيه تشهد على قساوةٍ أرهقت جسده، عبثت بمقدراته، وانتهكت أحلامه دون أن يتمكن من صدّها. البؤس يغطي

قسمات وجهه، ولحيته المتبعثرة على بشرته المصفرّة كجزرٍ من الشقاء، تحكي عجزه، وضعفه، وهوانه.

*****

على مدى ثلاثة أشهر، أصبح هذا الرجل جزءًا مهمًا من اهتماماتي الشخصية. رأيته كجزء مشع من معلم الطريق، يرافقني في ذهابي وإيابي إلى عملي، كجدارية يومية أتأملها، تعكس جانبًا من المأساة المغروسة في المجتمع. لا يمكنني تجاوزه دون أن أملأ نظري بقامته، محاولًا اكتشاف سره وصموده.

أنا أدير معملاً صغيرًا للخياطة، يعمل فيه ثلاثون عاملًا، ويضم عشرين ماكينة خياطة متنوعة، منها "Juki"، و"Singer"، و"Brother"، بالإضافة إلى ماكينات التطريز، والأبليكاسيون، والسرفلة وغيرها. بنيت هذا المعمل بجهد شخصي خالص، بعد أن مررت بأزمات مادية قاسية، عشت خلالها ضيقًا وعوزًا، وتعرفت على ألوان الفاقة في الحياة. لذلك، كان لمنظر هذا المتسول أثر بالغ في نفسي، وجعلني أضعه ضمن دائرة اهتمامي.

وبفضل الله ورحمته، أمتلك بيتًا صغيرًا وسيارة متواضعة تفي بالغرض، تعينني وعائلتي الصغيرة — زوجة رائعة وطفلان جميلان — على التنقل ومجاراة إيقاع الحياة. بطبيعتي، ومن خلال تجربتي السابقة، كنت أُجود على هذا المتسول بمبالغ بسيطة لا تتجاوز في أفضل الأحوال خمسة دولارات، بين فترات متباعدة. كنت أشعر بزهو داخلي وفخر، متباهياً أمام نفسي وأمام الله بكرمي عليه، مستحضرًا دائمًا الآية الكريمة: "وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا" صدق الله العظيم.

ومع تكرار وجوده في الطريق، صار هذا المتسول معلمًا

مألوفًا جدًا بالنسبة لي، بل أصبح جزءًا من الواقع المفروض، صورة من صور المدينة، حتى صار يُكنّى "دوار الزهور" بـ"دوار المتسول"! أجد وجوده هناك قد تحول إلى طابع من طوابع المدينة، لا يُمحى من الذاكرة.

في عرف الحياة، تتشكل العِربُ من زوايا حادة ومنفرجة، ترسم ملامح الكيان الإنساني. مخارج تدور حول محاور مغلقة، تجمع في مساراتها ألوان الطيف، فتغدو بوتقة من التناقضات التي تؤسس لقواعد الوجود. فلولا القبح، ما أدركنا جمال الملامح، ولولا هشاشة الضعف، ما عرفنا صلابة القوة، ولولا الفقر، ما شعرنا بسمو الغنى ورفعة التعفف.

التعفف في مواجهة الهوان... إنها الطبيعة كما أرادها الله، لكن البشر أداروها بقوانينهم المتذبذبة، فجعلوها قوس قزح متقلب، تروج فيه صورٌ داكنة حزينة وأخرى بهيجة، كلها تنبثق من واقع الفقر والتعفف.

عندها خطرت لي فكرة جلية: أن أقتحم أسوار هذا المسكين، أن أغوص في أعماقه، أن أكتشف أسراره الخفية، عسى أن أتمكن من تصفح أوراق حياته المكتوبة بحبره السري. أردت أن أتعرف على طبعه، معدنه، والمسالك المظلمة التي تختبئ في أزقة روحه. رغبت في معرفة حقيقة هؤلاء المساكين عن قرب، لعلني أجد ضالتي في منهجهم وسلوكهم.

كان عليّ أن أطرق باب ظنه بطريقة مختلفة، أن أقلب صفحات حياته المبهمة رأسًا على عقب، دون أن يشعر، دون أن يدرك غايتي، كي لا يعترض على فضولي وتخبطاتي. أردت أن أتعرف على هويته الحقيقية... ولكن، كيف السبيل إلى ذلك؟

حينها، تحركت إنسانيتي، تجلت في رغبة صادقة لتحطيم أسواره المنيعة، بعملٍ يهز كيانه، أضعه تحت المجهر، لأكتشف سرّ ما يشغل بالي. فقد دخل أجواء فكري دون غيره، واستوطن مساحة من تأملاتي لا يزاحمه فيها أحد.

في الحقيقة، الفضول دفعني لاكتشاف غموض العالم الآخر، ذاك العالم القابع خلف هدوءٍ مشبعٍ بالأسرار، وسط دوارٍ من العقد والظروف واللامبالاة. أردتُ أن أصقل هذا الغموض، أن أضيء عتمته، أن أستخرج من بين طياته جوهرًا قد يغير نظرتي للحياة... وربما لنفسي.

كان أشبه بلغزٍ محيّر، لا يبدّل منهجه، مرابط في ذات الساحة منذ زمنٍ طويل. راودني شكٌ بأنه ليس كما يبدو، ربما مسيّر من جهةٍ ما، أو مدسوس من قبل أمن الدولة لمراقبة الحراك، حفاظًا على الأمن العام. وربما... مجرد رجل أمن يتستر بزيّ متسوّل. كل الاحتمالات كانت واردة، وكلها تدفعني لرفع الستار عن وجهه، لمعرفة درجات انكسار لونه الحقيقي.

قررت أن أختبره، أن أضعه تحت المجهر، أن أراقب ردّ فعله حين أضع بين يديه مبلغًا غير مألوف. هل يكون هذا المال مفتاحًا لأسرار مغلقة؟ أم أن محاولتي ستذهب أدراج الريح، وتغدو مقامرة خاسرة؟

تقدّمت إليه. سلّمت عليه، صافحته، ثم سألته:

ما اسمك؟

تفاجأ من السؤال، كأنه لم يُسأل من قبل عن اسمه. أجابني مبتسمًا:...

يقولون عني جواد.

كم عمرك يا جواد؟

ضحك، ثم قال في ذهول:....

لا أعرف بالضبط... لم يعنِني ذلك، لكني في حدود الأربعين.

تبدو في نهاية الخمسينات يا جواد! هل أنت متزوج؟

هنا انكسرت نظراته، كأنها قالت لي: لا تستهزئ بي، لا تزد من مواجعي. يكفيني ما أعانيه من جوعٍ وتشرد. شعرت بثقل السؤال، فوضعت في يده مبلغًا من المال.

خذ يا جواد، هذا لك...

أخرجت من محفظتي مئتي دولار، ووضعتها في راحة يده. لم ينتبه لقيمتها، فقد اعتاد على السنتات، وفي أفضل الأحوال، دولار أو اثنين. نبهته:

يا جواد، انتبه... هذا المبلغ قيمته 200 دولار!

صُعق، وذهل. ارتجفت يده، حاول أن يعيد المبلغ إليّ، كأنه لا يستحقه. قال بانكسار:....

يا سيدي، هذا كثير جدًا!

لا عليك، خذه. إنه رزق من الله، وأنا مجرد وسيلة وصل.

كادت دموعه تنهمر، كان في ذروة فرحه، غير مصدّق. أراد أن يشكرني، لكن عيونه وملامحه نطقت عوضًا عن لسانه. بقي صامتًا، متسمّرًا في مكانه. كأنني سمعته يدعو لي: "الله يرزقك، يفرح قلبك، يحفظ عزيزك، ويفرج همّك."

هواجسي لا تكذب. لقد دعا لي بلغته الخاصة، من خلال صمته وجموده ونظراته. دعا بلغة أفهمها جيدًا... إنها لغة الملائكة. الكلمات تراقصت في تعابير وجهه كفقاعات الماء المغلي. تركته غارقًا في تفكيره، وعدت إلى سيارتي، أراقب تصرفاته عن كثب. وضعت هذا اللغز تحت المجهر، وما زلت أبحث عن الحقيقة خلف ذلك الهدوء المشبع بالأسرار.

بدأتُ أحسب حسابه؛ ترى، بعد أن استلم ذلك المبلغ الذي يكفيه معيشة شهر، وربما شهرين على أقل تقدير، كيف

سيتصرف؟ وهو الذي لا يطلب من الدنيا سوى لباس جديد لا يتجاوز ثمنه ثلاثون دولارًا من ملابس البالة النظيفة، ولقمة العيش يكاد يحصل عليها من الصدقات دون أن تُكلّفه شيئًا.

تبعته دون أن ينتبه. ما كان يشغل خاطري هو تفكيره بعد أن استلم المال. تكهنات لا تستقر في محلها... فيما مضى، كان تائهًا في تدبير الرزق، أما الآن فقد تاه في تصريفه. بدا مشتت الذهن، كأنما تفتحت أمامه مسالك وطرق جديدة، كانت فيما سبق مجرد ممرات ممنوع عليه الدخول فيها. الآن يمضي ليلتمس بعض أمانيه، ليرى شيئًا مما كان يسعى خلفه.

ما إن تركته، حتى لملم أشلاء فكره المبعثرة، وعزم على ترك الدوار خلفه. بدأ يجري بخطوات متسارعة، متخطّيًا المعابر والشوارع. تبعته بسيارتي دون أن يشعر، وأحيانًا كنت أتبعه مترجلًا حين ينزوي بين المارة، أو حين يدخل في مسارات الأزقة الضيقة ليختصر مشواره.

خلال تتبعي له، لم أره يلتفت لأحد، ولم يمد يده للناس. كان يجتاز الطرق بخطوات ثابتة، كأنما عزم على أمر ما، غاية خطرت بباله تدفعه دفعًا. بدا كمن اكتفى ذاتيًا بما امتلك، تحكمت في تصرفاته عزة نفسه، فلم يسقط في هوة الطمع. كان يجري كالنهر، ثابت العزم، لا يقف على شيء، قاصدًا هدفًا ما. الفضول دفعني لأتبعه حتى نهاية المطاف، حتى يكلّ به المسير أو يبلغ غايته.

تخطّى الشارع العام إلى الجهة الأخرى، واستمر في مشيه مسافة تقارب الكيلومتر، ثم انعطف يسارًا في شارع فرعي لا يتجاوز طوله مئتي متر، حتى بلغ متجرًا كبيرًا يربض في الركن الأيمن من الشارع. كان متجرًا تابعًا لجمعية شبه خيرية، تبيع منتجاتها بهامش ربح لا يكاد يُذكر.

بقيتُ قابعًا داخل سيارتي، غير مبالٍ للزمن، أراقب الباب

كمن ينتظر لحظة ميلاد حدثٍ ما. عيناي لا ترمشان، تتبعان الداخلين والخارجين، متسمّرتان صوب المدخل، تترقبان خروج جواد.

باتت مشاعري تسبق فكري في قراءة الحدث، تفسّر لي الحالة قبل أن يتسنى للعقل تحليلها. وجدتُ في جواد ندرةً من الصفات، يختلف عن أولئك المتسولين الذين يجوبون الطرقات كالدبيب، بل يختلف عن كثير من الأصحاء. يجمع في خصاله الطيب والكرم، نقيّ كالرمل على ضفاف البحر، أملود، يشعّ وجهه بخجلٍ يضفي عليه مهابة واحترامًا.

لو كان ممن يلهثون خلف الطمع، لما غادر ساحة الزهور، ولو كانت غايته المال، لمدّ يده لهذا وذاك في الطريق. أعتقد أن الحياة، وإن أدارت له ظهرها، فقد التفتت إليه من زاوية أخرى، وعلّمته دروسًا في القيم والإنسانية، صار يتكئ عليها كأنها باكورة صبره.

لم يطل انتظاري. خرج من المتجر يحمل كيسًا كبيرًا مثقلًا بالبضائع على ظهره، يكاد لا يقوى على حمله. منحني الظهر، اتجه يمينًا. رأيته يجرّ حملاً من الهموم أثقل من ذلك الكيس، غمامة تغشي فكره، تخالط فرحته بشيء من الحزن. هكذا هم المساكين، يطهرون أنفسهم بسعادةٍ مهمومة، لا تخلو من الأمل.

كل من تصيبه رشفة فرح، يكتسي لون حياته بالبهجة، إلا المساكين؛ تظل حياتهم رمادية، يطاردهم رعب الغد المجهول. ومع الغبطة التي كبّلت أوصاله وغلبت شقاءه، مضى بثقة مفرطة، مسرعًا نحو هدف غير معلن.

سار قرابة ثلاثمئة متر أخرى، كأنه يعد بلاط الرصيف بدقة، بوسع خطواته المتسارعة، كعربة تجري بفعل الريح نحو ميدان الراحة، ليغمد جرحه بين الأنام. وفي نهاية

المطاف، وصل إلى ساحة كبيرة قرب حي فقير، يمكنني أن أسميه مستنقع المتسولين الآسن بالفقر. يتجمع فيه عدد كبير من الأطفال والنساء والشيوخ، يُقدّر عددهم بثلاثين متسولًا، يجوبون تلك البقعة كالدبيب.

وما إن وصل إليهم، حتى بدأ يمرّ عليهم واحدًا تلو الآخر، يوزّع ما تبضّع. تجمع حوله الصغار والكبار، والفرح يتراقص في أعينهم. رأيت الذهول يتسمّر في وجوه الشيوخ منهم، الكل غير مصدّق، ينظر إليه بعين العجب، ليس لبخل جواد أو لكرمه، بل من أين له كل هذا؟

لأول مرة يتصدق عليهم أحد بهذا العطاء، فما بالك إن كان من صلبهم؟ لقد غالى في جوده وكرمه، تصرّف كوليّ أمر مسؤول عن شؤونهم ورعايتهم. تميّز بسلوكه، وكأنّ هذا اليوم كان علامة فارقة في حياته وحياتهم.

أما أنا، فقد تأكدت من صدق سلوكه، حتى فاضت نفسي بمشاعر جياشة نحوه. سعادة أغشت وجهي كرذاذ المطر، وانتشى فكري، يطير في فضاء الحلم، تنمّل جسدي، ودبّت قشعريرة في أوصالي، أضفت راحة في أعماقي.

لم أتمالك نفسي وأنا أقف بعيدًا عنه، فاضت محاجر العين بالدمع، نشوة لوّنت طراوة الخد، بسمة بيضاء طفحت على شدقيّ، سرحت بصور جواد المشرقة...

ما إن أفقت، حتى ترجلت من سيارتي متجهًا نحوه، وهو منشغل ببث الفرح في قلوب رفاقه. ربتُّ على كتفه، فالتفت نحوي، تفاجأ بوجودي، انحنى مرتبكًا، صعقته المفاجأة.

فقلت له:

لا بأس يا جواد، لا تنحنِ. كم كنت كبيرًا في تصرفك. لقد علمتني دروسًا في فن الحياة لم تبلغها الكتب. إنسانيتك فاقت إنسانيتي. أنت تصلح أن تكون قدوة لهؤلاء. وددت أن أعرف

بعض جوانب حياتك، لقد جذبتني بكل تفاصيلها. أنا مسرور بمعرفة رجل طيب بقامتك، يحمل من المبادئ والقيم ما ندر. النقود لا تقيم الإنسان مهما امتلك منها، بل يُقاس الإنسان بإنسانيته، بحسن سلوكه وتصرفه.

كانت لكلماتي وقعٌ عميق عليه، ذلك ما ارتسم على ملامح وجهه. عرفني على عائلة المتسولين، لكن بقي في نفسه سؤالٌ يخجل أن ينطق به: ...

- من هذا الشخص؟ ولِمَ يتبعني؟ وماذا يبغي من وراء ذلك؟

لم أدعه في حيرته، احتضنته، ثم قلت له:...

- لقد وضعتك تحت مجهر المراقبة والتجربة. أردت أن أتعرف عليك، كيف سيكون تصرفك الذهني والنفسي حين أضع بين يديك مبلغًا كبيرًا من المال. هل أنت ممن يمتهنون التسول، أم من الذين يتسولون من أجل لقمة العيش؟ لقد نجحت في الاختبار. شكرًا لك لأنك قربتني من مجتمع منسي، لا أعرف عنه شيئًا، ولا يحظى بأي اهتمام من الدولة أو المنظمات الإنسانية. لم تُوفّر لهم فرص عمل حقيقية يحتمون بها.

ثم استخرجت من جيبي مئتي دولار أخرى، وضعتها في يده، وقلت له: ....

- اعتبر نفسك موظفًا في شركتي، وهذا هو مرتبك الشهري مقدمًا. ستكون مسؤولًا عن توزيع منتجات الشركة على المحلات التجارية في المدينة. كما سأقدم لكل من في معيتك ملابس جديدة تليق بهم، تعينهم على قسوة الحياة. وستكون أنت المسؤول والوسيط والقائد في توزيعها، وتسجيل احتياجاتهم.

لم يصدق ما سمع، بعد أن صفعته المفاجأة. انحنى على

يدي يقبّلها، وهو يستبشر بتغير مجرى حياة الجميع.
﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة – صدق الله العظيم]
تشاء من البشائر قطرة ويشاء ربك أن يغيثك بالمطر

## 6- الفضولي

وقف مذهولًا أمام دكان البقالة، وسط جمع من المتبضعين، لا يدري ما يبغي أو يريد. يكسوه ارتباك من رأسه حتى أخمص قدميه، مشدود الأعصاب، معقود الحاجبين، كأنما تورّط في قضية غامضة أو اعتقلته عقدة عصية على الفهم. وجهه يحمل أثرًا غائرًا، كنقش فرعوني يوشم ملامحه المكفهرة، الممتهنة. كانت حالته لافتة، كما لو أنها انبأت الجميع على الانتباه عليه، بمن فيهم أنا.

دخل مزاجي دون استئذان، فأودعته سجن قيدي، أبحث عن سر تلك العقدة التي تعصف به. هيئته العامة توحي بصورة مشوهة من الخارج، فيما داخله يئن من انكسار مطعوج، ممزق. امتد أثر هذا التشوّه إلى أطرافه، فلا يستقر في موضع، وذراعه تهتز كالبندول بلا إرادة. لا شك أن خلف تلك التشنجات قوة خفية تشحذ أعصابه بالنفور، قوة لا يملك السيطرة عليها. بدا للملأ مربوشًا، كمن أصيب بلعنة الجنون، يدور في المكان كأنه يبحث عن شيء نسي اسمه، أو عقدة عقصت فكره ولسانه.

همٌّ ثقيل أطفأ النور عن وجهه المصفر، وأغشى عينيه الشاردتين في الأفق. ربما فقد شيئًا جوهريًا يكمل نواقصه، شيئًا ثمينا لا يُشترى، لا يباع، ولا يُستعاد بسهولة.

ومن خلال حدسي الذي لا يخيب، هجست بأنه يحتاج إلى من يعينه على كربه، إلى جدار يستند إليه حين تميل به الحياة.

سلوكياته أثارت انتباه المحيطين، طرحت تساؤلات في ذهن كل من راقب عبثه، وكل من لمس رعونته النافذة... كأنما كان مرآة لوجع ألم به، وصوتًا مكتومًا لحكاية مريعة. يا ترى من يكون هذا الرجل؟ أهو مجنون أم سوي؟..

صرت أُكلم نفسي، أدير ذلك التساؤل في فكري كدوامة لا تهدأ: لا، لا هذا ولا ذاك... أظنه متورطًا في قضية ما، حائرًا في فك عقدتها. ربما مصابٌ بمرض الرعشة، فذراعاه لا تكفان عن الاهتزاز.

وبحكم فضولي الذي لا أستطيع التخلي عنه، تقدّمت نحوه محاولًا الاحتكاك به، علّي ألتقط ما يدور في فلكه. وجدته غارقًا في عالم من الخيال، لا يدرك ما حوله، ولا ما يدور في أعين المتتبّعين من حيرة واستفهامات شغلت بالهم. كان فكره مشدوهًا في أمرٍ عويص، بعيدٍ جدًا عن محيطه. فباغتته بسؤالٍ عابر:.....

— عفوًا يا أخي، هل تحتاج إلى مساعدة أقدّمها لك؟

حدّق في وجهي بنظرة شزراء، كأنما قال لي: "ما دخلك؟" ثم هزّ رأسه كما يفعل الهنود، نافيًا رغبته في المساعدة دون أن ينطق بحرف. إشارة أراد بها صرفي، ففهمت مغزاها وتجنّبته، لكنني بقيت أراقبه عن كثب.

انسحبت من المكان، ووقفت جانبًا تحت ظل شجرة صفصاف، غير قادر على خلع سترة الفضول عن كتفي. تأملت حركاته، وبدأت أُخمّن عقدته باحتمالات شتى:.....

لا شك أنه تدبّس في قضية شغلت باله، يبدو مهزومًا من الداخل، يساوره قلقٌ تغلغل في أعماقه، لا يستطيع كبح عصف مشكلته، ولا إخفاء آثارها عن وجهه. الألوان أمام عينيه مشوشة، لا يميّز بينها، كما يبدو من لباسه المهمل وعدم اكتراثه بما يدور حوله. كأنه لا يرى سوى عتمة لا يستطيع النفاذ منها، ولا يملك القدرة على البوح بما يجول في خاطره أو الاستكانة لقدره.

في قرارة نفسي، قررت أن أكون رأس الدبوس الذي يفجّر دمامل الهم في وجهه. راودتني تلك الفكرة، فتبعت خطواته،

أبحث عمّا يخبئه هذا المعتوه من أسرار.

وأنا أتبعه، رأيته يحاول عبثًا إخفاء همٍ طافحٍ على وجهه، يحاول تبرير ما لا يريد الإفصاح عنه. لكن الفضول المتأجج في داخلي أقوى من جبروته، ولن أدعه يفلت من قبضتي بهذه السهولة...

أظن أن ملامحه باتت مكشوفة للجميع، وإن بدت بدرجات متفاوتة، حتى غدا فريسة سهلة في مصايد العيون. الكل تبعه دون قصد، يترقبه بعفوية، وكأن هناك تنافسًا خفيًا بين الحاضرين في تتبع غيّه. أو ربما خُيّل إليّ ذلك. لعلني أصبتُ بشيء من الهوس الذي أصابه، فصرت أتخيل اهتمام الآخرين به بقدر اهتمامي الشخصي. هذا ما توهّمت، وما أفرزته الحالة بظلالها. وفي قرارة نفسي، تمنيت لو أختلي به جانبًا.

هكذا بدأ اهتمامي بأمره، حتى جعلته كعلكة أمضغها بفكري، لا تفارقني.

استنتجت من هيئته المرتبكة وحركاته الزائدة صورة كارتونية لشخصية أبله، تنم عن ضعف داخلي، فصنّفته في عالمي الخيالي ضمن شخصيات الرسوم المتحركة. بل إنه يشبه "كركور" في برنامج "افتح يا سمسم".

تقدّم نحو صاحب البقالة قائلاً بلسان مرتجف:...

– من فضلك... أعطني عللللبة سيجار... و... قاروووورة ماء.

قالها بنبرة آمر، كمن يود أن يفرّ من العيون المحلّقة حوله، يهرب من الزحام، يلوذ بانزواء خلف هواجس الظن المتأججة، عسى أن يستعيد شيئًا من توازنه. بدا وكأنه يدرك تمامًا أنه تحت المجهر، تتقصده العيون، بحياد أو بفضول.

أجابه صاحب البقالة بهدوء وكياسة:....

– أي نوع من السيجار ترغب، يا أخي؟
رد عليه بتلعثم وعدم سيطرة:...
– أي... أي نوع... لا... لا يهم!
أخذ علبة السيجار وقارورة الماء، ثم انزوى على أريكة جانبية خلف الطريق العام، يتمتم بكلمات مبهمة لا تُفهم، لكنها دفعتني للاقتراب من ناره، علّني أطفئ شررها.
راح يدخن سيجارته، يمجّ دخانها وينفثه بزفير ثقيل كمدخنة، منطويًا على ذاته، هائمًا. ما إن تنفد سيجارته حتى يشعل أخرى، وهكذا دواليك، حتى كوّن تحت الأريكة كومة من أعقاب السجائر.
منظره لا يسر، هشيم يحترق، جبينه يتصبب عرقًا رغم اعتدال الطقس. شعرت بأنه بلغ ذروة الاشتعال الداخلي، وربما تدفعه حالته المتكهربة إلى فعل جنوني خارج حدود المألوف: انتحار، أو تهور. هذا ما خطر ببالي في أول وهلة.
في الوقت ذاته، بدا انعزاله وانشغال فكره كزوبعة خاملة، قد يفاجئها المخاض في لحظة غفلة. تدخينه المفرط وانغماسه في ذاته أضفيا على هيئته مسحة من العبثية والتجريد، كأنه لوحة من لوحات بيكاسو، تختصر مراحل عمره الماضية، وتودع فيها عتمة حزنه بكل ما فيها من تجهم وانطفاء. لوحة بهتت معانيها، لكنها ما زالت تنطق بالألم.
من ناحيتي، لم أدعه يغيب عن ناظري لحظة واحدة. تبعته منذ أن وطأت قدماه حدود الحي، وضعته نصب عيني تحت عدسة المجهر، جعلته خصمًا لي، وبتّ على استعداد لمواجهته وقراءة ظرفه، شاء أم أبى.
هذا طبعي؛ أجد لذة في ملاحقة هذا النوع من البشر، كأنني أمنح نفسي جائزة تقييم خفية. كنت واثقًا من أنه يحمل خزينًا من الأسرار، والتي بمعرفتها أروي ظمأ حيرتي التي

تكاد تلتهم أحشائي. فأنا غريب الأطوار مثله تمامًا، وتلك الصفة أعتز بها، لأنها تمنحني اختلافًا عن باقي البشر. أجد في فرادة شخصيتي ميزة لا يشبهني بها أحد.

حقًا، إنه غريب الأطوار. لم ألتقِ بمثيله من قبل، لا في الساحة المكتظة بالمارة، ولا في تقاسيم وجهه المكرب، ولا في هندامِه أو لون شعره الأشعث.

الصُّفرة غائرة في تعابير وجهه المنكمش على ذاته، فاقدًا مسحة الجاذبية؛ كأن إسفنجة ماصة قد امتصت مفاتن الخدود، وسلبته الرونق والنضارة. وجهه المخروطي لا يحمل سوى عينين غائرتين في محجريهما، وأنف طويل شاذ كمنقار البجع، يعلوه فم صغير مشروط تنقصه الشفة. فأضحى وجهه كدائرة القطع الناقص. يرتدي قميصًا فضفاضًا بلون شعره الأصهب، وبنطال جينز أزرق متهتك عند الركبتين، يغور داخله جسد نحيل كعود القصب. ومع انحناءة رقبته، يبدو للناظر وكأنه تجاوز الخمسين مع أنه في ثلاثينيات العمر. تهجس به كروبوت يتحرك بتحكم عن بعد.

ترى، من يكون هذا الشخص الغريب؟

ما هي قصته؟

ما المعضلة التي أوصلته إلى هذه الحالة المزرية؟ بدأ الفضول يتصاعد في ميزان عقلي، حتى بلغ حد التدخل المباشر، رغبةً في كشف خفايا حياته التي بدأت تتورد أزاهيرها في ذهني، وتنضج ثمارها تحت ظلال الصمت المهيمن بيننا.

كأن أسراره قد نضجت، وحان وقت القطاف. أهجس بها، تود أن تفلت من بين أصابعه، تنسكب من مسامات وجهه المتجهم. حينها، قررت الاقتراب منه.

شغل بالي، وصارت الهواجس تهطل على أرض فكري

كالمطر، تخترق سمائي كما تفعل الشهب. فأنا بطبعي عنيد، أمتلك فضولًا مبررًا وغير مبرر في معرفة حقائق الناس ومشاكلهم. أحاول فك العقد مهما كانت عويصة. وفي الوقت ذاته، أتصف بطيبة القلب، وحسن الظن، وجمال الروح. غايتي هي مناي، لا أبتغي الإساءة أو التشهير، بل أسعى لتجلي هموم الآخرين، ومساعدتهم على تجاوز محنهم، حتى لو لم تربطني بهم صلة أو معرفة مسبقة.

أشعر أنني فضولي بالفطرة، وعملي يزيدني زهوًا وفخرًا، لذا لا أخجل منه. هذه هي شخصيتي، وهذا هو طبعي الذي تطبعت به منذ نعومة أظافري، لا أستطيع الحياد عنه.

فيما مضى، خضت تجارب ومحاولات تدخل فيما يعنيني وما لا يعنيني. صادفت طرائف وعُقدًا، بعضها ظريف، وبعضها مأساوي، وبعضها مسلٍ. غايات الناس لا تُدرك، ولا تستوي في ميزان الحياة. حين تبحث في جيوب المتورطين عن حلول لعُقدهم، تستشعر أنهم مساكين، لا حول لهم ولا قوة، تورطوا في متاهات شائكة، فباتوا يعيثون في دروبهم كالحيوانات السائبة.

دوري في ذلك هو تفتيت العقد، تبسيطها، جعلها أكثر سلاسة بين أيديهم، بدلًا من الخشونة التي تقرح ظنونهم، وتعسر خواطرهم. في حياة هؤلاء، تجد أكوامًا من غرابيب سود من العقد، وعجائب من القصص، مدفونة تحت أغطية واهية، لا تحتاج سوى لمعول صغير لتظهر الحقائق للعيان. فبعض الوجوه لا تحتاج إلا لنفض الغبار عنها، لتستعيد نضارتها.

قصص منوعة، معظمها فرضتها العادات والتقاليد البالية، والفروقات في مستويات الثقافة والمادة، إضافة للإملاق المنتشر وضعف التعليم والطائفية والقومية المفروضة على

المجتمع....

هناك من هو جاهل من هو دارك، من هو عالم في ما يعنيه وما لا يعنيه، منهم البسيط والمعقد، منهم من هو سطحي التفكير ومعدم، غايته لا تتعدى أطر يومه، كالساذج والمتسول الذي لا يقضم من الحياة شقفة، يبحث عن القناعة بين الأشواك الدامية دون أن يجدها، ومنهم من لا يدرك عمق الهوة تحت قدميه.....الخ. هناك من يمسك العصا من منتصفها، غايته واضحة، مرسومة بين عينيه، تتصف بالقناعة وأنصاف الأمور، بعيدا عن الخرص والطمع والضوضاء والحسد. ومنهم من لا تملأ عينيه أموال قارون، مربك بالجشع.

على أية حال، أذكر مرة من المرات أنني حاولت الإصلاح بين زوجين تمسكا ببنود الخلاف كما يتمسك الزاهد بصومعته. العناد الزائد، ومسألة الكرامة المبالغ فيها، صاغت قراراتهما، وأججت حججهما، ورمتهما في بوتقة الجحيم، وفرضت عليهما تعاسة مذلة. حينها، راودتني رغبة عارمة في فك طلسم تلك العقدة، بعد أن تحوّل الخلاف من شرارة إلى نار أضرمت في البيت، وكوت المعنيين بنيرانها.

بطبعي، أختلف عن الآخرين في التفكير والمنطق، وفي حب الاستطلاع. وضعت لنفسي خارطة طريق لاقتحام ملفهما الشائك. الفضول حفّزني على طرق أبوابهما الموصدة، وتشبثت بجدول الخلاف بصفتي جارًا ووسيطًا يحب الخير، همّي كان إخماد تلك النيران قدر المستطاع.

ورغم أنهما قبلا وساطتي بشيء من السخرية، إلا أنهما لم يمنعا هاجسي من طرق باب التجربة. وعلى الرغم من أن المعرفة التي تجمعنا سطحية، لا تتجاوز حدود السلام والاحترام، كوننا نسكن في ذات الحي، فقد دخلت بقوة الإرادة

من باب التقوى وخشية الله، حيث يقول سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: "إن أبغض الحلال عند الله الطلاق"، محاولًا إصلاح ذات البين بين قلبين من عباد الله.

بدأت أكذب على الطرفين، بشكل لم أصدق نفسي فيه. ألّفت لهما قصصًا من الخيال بلسان الآخر، وصغت لهما تعابير لطيفة، أدبية، وأحيانًا غزلية، أذكرها عن قصد. كثيرًا ما كنت أرى الغرابة ترتسم على محياهما حين أنطق بها، ربما لأنهما لم يتدربا على سماعها من قبل. كنت أكذب في سبيل إذابة ثلوج العناد، والتوصل إلى حل وسطي يعيد المياه إلى مجاريها.

يؤلمني أن أجد للتفاهة موطئ قدم في مصير بعض الناس، تودي بهم إلى هوة سحيقة، وتمنع عنهم سر الحياة. وبعد محاولات حثيثة استمرت لأسابيع، وبعد جهد مضنٍ عرف به القاصي والداني، تمكنت من جمعهما في داري، في محاولة لإعادة العلاقة إلى سابق عهدها.

وفي لحظة اللقاء والمصارحة، وبعد أن تركتهما يجليان غبار العصف عن حياتهما، حدث ما لم يكن في الحسبان، والذي كنت أخشاه. النار التي أخمدتها بأساطير الكذب والتلفيق، شبت من جديد في قش العلاقة الزوجية، بوتيرة أشد من الأولى. تلك الأكاذيب التي لفقتها فعلت فعلها المشين، فبدل أن تُحل العقد، زادتها تعقيدًا. اشتد وتير الخلاف نتيجة انعدام المصداقية في مخيط الصلح. الحقائق المدفونة عرّت الأكاذيب، وتحولت إلى بنزين يغذي فتيل العقدة، حتى تم الانفصال النهائي بين الزوجين.

وفي موقف آخر لا أحسد عليه، ولا يقل عن الأول طرافة، راودني خاطر عن رجل مزاجي، زاد في تجاوزه وسطوه على الناس. لصفة العصبية المغروسة فيه دور في بلورة تلك

العقد، كصفة الحرارة الملازمة للنار. لم يجرؤ أحد على ثنيه عن مزاجيته المتطرفة.

ربما كانت المزاجية بلورة لتشنجاته، أو نتيجة لوترية يتصف بها، شكلت تلك المزاجية عقدًا في شخصيته. كان مغرمًا بحب التملك، والاستيلاء على حقوق الآخرين عنوة. يدرك عدوانية سلوكه، ومع ذلك تستهويه الحالة، يرغب في إذلال الآخرين، ويتجاوز على حقوقهم المادية والبدنية والروحية، مستغلًا بنيته الجسمانية وأعصابه المتشنجة كسلاح للترهيب.

في المقابل، استسلام مناوئيه شجّعه على التمادي في سلوكياته، وأشعره بمهابته، في الوقت الذي تتحقق له مآربه دون أن يواجه معضلة. من جهتها، كانت الناس تتحاشى الاصطدام به، وتتجاوز عن أخطائه، فوجدت نفسي مرغَمًا على التدخل وسط هذه المعمعة التي لا أحسد عليها، محاولًا ثنيه عن سلوكياته وتماديه في تجاوزاته غير المقبولة.

التقيته وسط الشارع، جذبته إلى مقهى قريب، أملًا أن أصل معه إلى غايتي المرجوة. شكوت له ما تشكيه الناس وتنتقده به، وددت أن أعرف دوافع تلك العدوانية، عسى أن أعالجها.

حينها، نظر إليّ بعينين شزرين، كأَسَدٍ جامح يقف أمام فريسته. كان عليّ أن أتجنبه وأتحاشاه، فالأعصاب التي تركبه تختزل المسافة بينه وبين غريمه في لحظة. لم أراعِ مسألة السلامة، ولم أترك مسافة كافية تفصلني عنه، ودون سابق إنذار، انفجر بركانه في وجهي. انهالت عليّ قسوته، دون أن يكون للرحمة موطئ قدم فيها. تطايرت الحروف من شدقي، ولم أستطع أن أجمع شتات نفسي لأُنقذ ذاتي من كماشته. نتيجة الصدمة، ارتخت قدماي، ولم تسعفاني على

الهرب. كدت أفقد وعيي، لولا أجساد المارة التي حالت بين قبضته القوية ووجهي. تمكنوا من إبعادي، ولاموني على الفضول الذي أتحلى به. حينها، تذكرت المثل القائل: "من تدخل فيما لا يعنيه، لقي ما لا يرضيه".

رغم كل ما مررتُ به، ظل الفضول صفةً محببة إلى نفسي، يجري في عروقي كما يجري الدم، يوقظ الفكر ويشعل جذوته، ويزيل عن الجسد شوائب القنوط. بل إنني ازددتُ إصرارًا على فهم ماهيته، فهو القدر الذي فُصِّل رداؤه على مقاسي، يعكس حقيقتي الغريبة التي أحبها وأعتز بها، رغم ما يراه المجتمع فيها من غرابة أو نبذ. هكذا خلقني الله، وغرس بذرة الفضول في ذاكرة قلبي.

ومع التجربة، صار الفضول رفيق دربي، نما وترعرع مع ذاتي، طوّعني لإرادته، ومنحني خبرة واسعة في فن الحياة وإدارتها. أرغمني على تجنب الموبقات، وغمرني بسحره الآسر، حيث تكمن النشوة في معرفة التفاصيل الدقيقة لمشاكل الناس، وفي إيجاد الحلول والمشورة لها. إنه السحر بعينه.

أراه متلألئًا في عيني، وتغمرني النشوة حين أُفرج كربًا عن عاجزٍ أنهكته العقد. تتعاظم لذتي حين أُدرك أنني قد تشبعت خبرةً يستعين بها الآخرون. الفضول جعلني حذرًا في كثير من المواقف، خاصة تلك التي تفرض عليّ الاحتكاك بالمتهورين والمتنفذين. علّمني أن أتوقى عبث القريب، وأن أُدرك الينابيع المالحة في القدر والحساب.

ربما لا تعجب هذه الشخصية أحدًا، لكنها تعجبني. لم أستطع أن أتنكر لها أو أبدل جلدي. أشعر أن الفضول هذّب شخصيتي وصقلها. هو رقم مجهول يبتعد عنه الناس، أما أنا فقد عرفت أسراره، حللت ماهيته، فسّرت مكنوناته، ورسمت

له شكلًا هندسيًا في ذهني لا يفهمه سواي.

اكتشفت عناصره وتفاعلات ذراته، وأدركت أن ذرته تختلف في عددها الذري عن جميع العناصر. تمنيت لو أنني أضع جدولًا خاصًا بمشاكل الناس، كجدول مندليف، أثبت فيه غرائب ما أفرزته تجاربي، وأضع حلولًا جذرية لكل معضلة.

هذه هي الحقيقة، وهي حقيقتي. أقتنع بها وأحبها كما يجب، فهي هويتي وهوايتي أمام المجتمع، التي تميزني عن سائر البشر.

***

كأسان من الشاي... ومثلث الحيرة

أخذت كأسين من الشاي، وتقدمت نحو ذلك الغريب بشغف التعرف عليه. عيناه شاخصتان باتجاهي، واجفتان، حائرتان، تبصران خلف المدى. أهجس أنه لا يراني وأنا أقترب منه، لانشغال فكره بأمرٍ ما، كأن عينيه مغشيتان بهالة سوداوية، منحرفة عن مسارات النظر. بدا عاجزًا عن إدراك سكينته، غير قادر على منع صدى القلق والحيرة من التسلل إلى ذاته، تائهًا في دوامة الضياع. وربما الحالة التي هو فيها ستأخذ من صحته الكثير، ومن ماله الكثير، قبل أن يستجمع قواه ويعيد لنفسه توازنها.

ترى، هل أستطيع انتشاله من وضعه المأساوي؟ سؤال شغل تفكيري...

وبناءً على تراكم خبراتي السابقة، وضعت حالته في ثلاث زوايا، ورسمت له مثلثًا مرعبًا لا يمكن أن يفلت منه. خمنت احتمالات مشكلته حسب الأولوية:....

أولًا: قد يكون فقد عزيزًا من أسرته، أو أحد أصدقائه، أو زوجته... وهو الاحتمال الأقوى، فالحزن والارتباك واضحان على وجهه وهيئته، والسيجارة المعلقة بشفتيه تنطق بما لا

يُقال.

ثانيًا: ربما فقد وظيفته، فصار يضرب أخماسًا بأسداس، وتشتت فكره، وغرقت رؤيته في الضبابية، يدور في مكانه بعجز ظاهر... وهذا احتمال معقول.

ثالثًا: ربما فقد مبلغًا من المال لا يستطيع تعويضه... احتمال ضعيف جدًا قياسًا لهيئته، لكنه يظل واردًا، ففي هذه الأيام لم تعد الهيئة تعبر عن حقيقة البعض.

على أية حال، حملت كأسين من الشاي وتقدمت نحوه مسلّمًا:

السلام عليكم...

لم يجبني، التفت يمينًا ويسارًا، غير مصدق أن السلام موجه له!

رد بهدوء:....

تكلمني...؟

ابتسمت في وجهه قائلاً:...

وهل يوجد غيرك في المكان؟ ما بك يا أخي؟ خذ، اشرب الشاي... هدّئ من روعك، أراك مهمومًا جدًا.

أخذ كأس الشاي بيد مرتجفة، وعيناه تخترقان الصمت، ينظر إليّ نظرة استفسار، كأنه يقول: من أنت؟ ماذا تريد؟ كأنه يحاول أن يتذكرني، إن كنت قد مررت بسكة حياته يومًا ما. قال بصوت ناعم منكسر، كأنه يتأمل من ينقذه:

أأنت تعرفني؟

لا يا أخي، ليس بالضرورة أن أعرفك، الناس لبعضها... لكني أتشرف بمعرفتك.

ثم قدمت له نفسي:....

أنا الصحفي ميلاد، ألم تسمع باسمي؟ أعمل في صحيفة "الرياضي" منذ سنتين... وأنت من تكون؟

رأيت علامات الاستفهام والاندهاش ترتسم على وجهه، ترى بمَ انشغل تفكيره في تلك اللحظة؟ فقال لي:.....

حقًا؟ أأنت صحفي رياضي؟

نعم يا أخي، وما الغريب في ذلك؟

أنا... صبري... أعمل في بلدية المدينة! انتقلت إليها منذ شهر تقريبًا.

أهلاً وسهلاً بك، تشرفت بمعرفتك.

شعرت أن الأمور بدأت تتيسر لمعرفة مقاصد حزنه ومشاكله الدفينة، وهو غرضي وغايتي التي أجاهد من أجلها. بدا أن الفرصة مواتية للدخول معه في تفاصيل تجهمه. اسمه صبري، لكنه من الواضح أنه لم يكن صبورًا على مشكلته. فبدأت باستغلال الفرصة وطرحت عليه بعض الأسئلة:

هل كان لك ولع بالرياضة فيما سبق؟ أقصد، هل مارستها؟ هل تحبها؟

طبعًا... طبعًا يا أخي، لدرجة الهوس!

عجيب أمره، هيئته لا تدل على أنه شاهد ملعبًا في حياته. ترى، ما الذي يجعله يتولع بالرياضة؟ والكلام له:..

أنا... أنا عداء سابق... كان الناس يلقبونني بـ"صبري طيارة" لسرعتي في الجري – هههههههه.

إذًا، ما بك؟ لماذا أنت متجهم وحزين جدًا؟ إن كنت تود أي مساعدة، فأنا جاهز، سأكون بخدمتك دون تردد، فقط افتح لي صدرك، وعبّر عما يجيش في خاطرك.

وهل يهمك حزني؟

أكيد! يمكنك أن تخبرني بما يعيق مزاجك، وبإمكانك أن تعتمد عليّ.

وهل تكتم السر؟

تبادرت إلى ذهني أمور كثيرة. طالما هناك سر لا يريد أن

يُفتضح، فلا بد من فجوة واسعة في حياته يود ترميمها. قد تكون في مجال المرأة، أو السياسة، أو أمور أمنية، أو ربما وقع فريسة فخ أو نصب خسره ما يملك، أو... توقعات كثيرة بددت كل ما بنيته سابقًا في مثلث برمودا.

فقلت له بلا تردد:....

اطمئن يا أخي، سرك في بير. أخبرني، ربما أستطيع مساعدتك.

لا، لا، لن تستطيع مطلقًا مساعدتي، لا أنت ولا غيرك!

ترى، كم حجم المشكلة التي فاقت طاقتي وطاقة الجميع، بحيث لا نستطيع تقديم حلول لعقدها؟

يا أخي، جربني ولا يهمك!

المشكلة فوق التحكم بها، إنه قدر وقد حُسم! إنه الحظ السيئ للغاية! وقد وقع ما لم أتوقعه مطلقًا في هذا اليوم المشؤوم...

كنت أصغي له وهو يسترسل، وكل همي أن أمسك برأس الخيط الضائع في هذه المتاهة، المتمثلة بهيكل إنسان ميت، فاغر أذنيه وفمه بوجهي، أود التقاط سره.

نعم، أسمعك، أكمل...

أنا مُولع إلى درجة الجنون، بالفريق الكتلوني (برشلونة)، الذي خسر اليوم بطولة أوروبا...

وبدون أن أصغي لنفسي، وبدون لباقة أو تحضير، صرخت بوجهه:....

نعـــــم! كل هذا الحزن والتجهم والكآبة لخسارة فريق كرة قدم! وما دخلك أنت؟ لقد شغلتني ساعات من المتابعة في أمر تافه! الله لا يوفقك، كم أنت تافه وغليظ وثقيل دم!

لم أدرك حجم انفعالي وقوة صراخي، حتى انتبه كل من

حـولي للصـعقة التـي نزلتهـا علـى رأسـه. أحرقـت هشـيم فكـره السـطحي... فـلّ مـن المكـان، لـم يسـتطع تـدارك نفسـه، فقـد زمـام أمـره، تـرك مكانـه وهـو يجـري بقدميـه الهـزيلتين باتجـاه الجهـة المعاكســة، مبتعــدًا دون أن يلتفــت خلفــه، كأنــه أدرك حجــم تفاهته.

حينهـا أدركـت: كـم مـن بشـر تـرك همومًـا تخصـه وتخـص الـوطن والبيئـة والمجتمـع، ولـم يكتـرث لهـا، وتمسـك بـدلًا مـن ذلـك بـأمور دنيويـة تافهـة، لا تجـدي نفعًـا ولا ضـررًا. صـحيح أن النـاس معـادن، ومعـدن كـل شـخص بيئتـه وثقافتـه ودينـه. فكـم مـن معـدن رخـيص الـثمن، وكـم مـن معـدن بـاهظ القيمـة... فالإنسـان مطبـوع علـى الخطـأ، والغبـي هـو مـن يتمسـك بعنجهيـة تـديم عليـه أخطــاءه. التــافهون وحــدهم منشــغلون بقضــايا لا تهمهــم... كالذباب.

# 7- بياض الدم

على امتداد سنوات عملي الطويلة كطبيبة، لم أواجه عقدة استعصت على الحل، ولا لغزًا عجزت عن فك خيوطه، كما حدث في أحد صباحات يوم جمعة. كانت مشكلة بلا أساس منطقي، نبتت من رحم الجهل، وتطورت بسرعة خاطفة، حتى التفت حول أعناق أصحابها، لتغدو عقدة شائكة تثير الغضب في الأطراف والجذور على حد سواء.

لقد أثقلت هذه المشكلة كاهلي نفسيًا، وانبثقت كقدر أحمق لا ينطق إلا بالصمت. صبّت جام غضبها على مشاعري ومشاعر زملائي في المشفى، وجعلتني عاجزة، مكتوفة الأيدي أمام سهامها، لا أملك سوى الانتظار حتى حين.

كانت عقدة هلامية، متجذرة في أعماق العادات والتقاليد الخاوية، غير المدروسة، والمترسخة في بطون المجتمعات الشرقية والدينية، تغذيها الجهالة وسوء الفهم. إنها أزمة نفسية خالصة، لا تُحل إلا بتكاتف المثقفين والخيرين من أبناء المجتمع.

في ذلك الصباح، جلست مبكرة على وقع صراخ غير مألوف، يتردد في صالة الطوارئ. أحيانًا، يُفاجأ الإنسان بأمر طارئ لا يعرف كيف يتعامل معه في لحظته الأولى: إلى أين يتجه؟ ماذا يفعل؟ من يستشير؟ تلك الخطوة الأولى هي مفتاح فك الطلسم، وبداية الخروج من متاهة الحيرة.

قد يدور الإنسان في دوامة لا يخرج منها بنتيجة، حتى يركن إلى قرار صائب بعد حين. أحيانًا، تلهمه فكرة خاطفة، آنية، لكنها كفيلة بتغيير المسار. كل ذلك يتوقف على إدراكه، وعلى خبرته وبراعته، وعلى مدى ثقافته واهتمامه بالتفاصيل والعموميات، وعلى قدرته في عنونة القضية. غير أن سوء

التقدير قد يقوده إلى غرق أعمق، وهمٍّ أكبر.

كانت الساعة تشير إلى الخامسة فجرًا من يوم الجمعة، ليلة خفارتي الأسبوعية في مستوصف الرحمة، الواقع في جانب الكرخ من بغداد. شعرت بريبة من أن تصادفني مشكلة عويصة، لا أملك حيالها الحكمة الكافية ولا الحذق المطلوب. خشيت ألا أكون عند حسن ظن من يحتاج إلى معونة دقيقة ولائقة، وأن أُلام على تقصير غير مقصود، سواء من قبل المسؤولين أو المراجعين. يضاف إلى ذلك فقدان الراحة، وحالة الشد النفسي والعصبي التي ترافق مثل هذه الليالي، فأنا لا أرغب أن أكون في مواجهة مباشرة مع مريض أو ذويه، خصوصًا إن كانوا من الجهلة.

تكمن المشكلة في السلوك العام، حيث ينظر كل طرف إلى القضية من زاويته الخاصة، دون تقدير لحجم المسؤولية الملقاة على عاتق الإدارة، ودون إنصاف للعطاء المبذول من قبل العاملين في المستوصف.

أتذكر إحدى المرات حين تعرضت زميلتي لعنف وتهديد وتوبيخ وقذف من أهل مريض، وانتهى بها الأمر إلى المحكمة القضائية؛ لأنها لم تستطع إنقاذ طفل تعرض للدهس من عجلة مسرعة. صحيح أنه وصل إلى المشفى حيًا، لكنهم لم يدركوا حجم الكارثة التي أصابت جسده من نزف داخلي لا يمكن السيطرة عليه، مما أدى إلى وفاته. كثيرون يتصرفون في مثل هذه المواقف بعواطفهم، لا بعقولهم.

بدأت المشكلة في تلك الليلة المشؤومة مع أولى خيوط الفجر. كان عنبر مستوصف الطوارئ صغيرًا جدًا، ويبعد عدة كيلومترات عن مشفى اليرموك الرئيسي. الحي الذي يقع فيه المستوصف جميل، يطل على نهر دجلة، وتحيط به مواقع تاريخية تبجل زمن بغداد العباسي وما تلاه من حقب. فيه

منتجع للراحة والاستجمام، وحدائق واسعة، وفندق حديث يطل على الشاطئ، غالبًا ما يقصده العرسان الجدد لقضاء ليالي شهر العسل، لما تتمتع به المنطقة من هدوء وسكينة، وإطلالة آسرة تستقطب الزوار.

انتفضتُ عن سريري مذهولة، أفزعني الصراخ الهادر في الصالة. في ثوانٍ معدودة، جهزت نفسي لمواجهة الأمر، ارتديت معطفي الأبيض، علّقت سماعة الفحص في عنقي، وانتعلت نعلي الطبي، ثم هممت بالخروج من الغرفة على عجل.

لكن للعجلة ثمنها؛ فقد فقدت تركيزي، وتعثّرَت قدمي بكرسيٍ صادف أن يكون أمامي. ولولا أني استندت براحة يديّ على الجدار المقابل، لارتطم وجهي به. أمسكتُ بمقبض الباب بيدٍ مرتجفة، فتحته بقوة، وفي اللحظة ذاتها استقبلتني الممرضة ندى، مذهولة ومرتبكة، تحاول أن تشرح لي الموقف وهي تتلعثم بكلماتٍ متقطعة. بصعوبة، تمكنتُ من فك طلاسمها، إذ قالت:.....

– د... دكتورة رجاء... أسرعي، عروسٌ مغشيّة بدمائها، قسى عليها زوجها في ليلة دخلتها.

في تلك اللحظة، تداعت في ذهني احتمالاتٌ كثيرة. ربما كانت العروس صغيرة السن، لم تحتمل عنف الرجل في أولى لحظات زواجها، وهي حالة شائعة بين الأزواج قليلي الخبرة والثقافة، أمام اندفاع الغريزة. وربما كانت مكرهة على الزواج من رجل لا تحبه، أو يكبرها سنًا، فتعرضت للقسوة. أو ربما لم تكن مهيأة نفسيًا للزواج، فأصيبت بانهيار عصبي. وقد تكون هائمة في حب شابٍ آخر، لا تستطيع البوح بعلاقتها.

كل الاحتمالات واردة.

تقدمتُ نحو الصالة، التي لا تبعد سوى خمسين مترًا عن غرفتي. كان صوت الرجل غليظًا، يزمجر كوحشٍ على فريسته المنهكة، تلك التي لا حول لها ولا قوة، والصمت يخنق أنفاسها. تمكن العاملون والحرس والممرضون من تحييد الزوج الموتور، كونوا حاجزًا بينه وبين زوجته، بل احتجزوا العروس في غرفة الحرس عند مدخل الصالة.

دخلتُ الصالة، فوجدت العروس منهارة تمامًا، جسديًا ونفسيًا، مرمية على سرير المرضى كدميةٍ بلا حراك، تزفر الآهات بألمٍ نفسيٍ عميق، يعكس حجم القسوة التي تعرضت لها، والجرح الذي تعشّق في أعماقها.

في مثل هذه الحالات، حيث العنف هو سيد الموقف، لا بد من تدخل الشرطة قبل أي إجراء علاجي، سوى بعض الإسعافات الأولية لوقف النزف إن وجد، أو تهدئتها بحقنة مهدئة كـ(بروفتين، تيفاني، أو أتراكس)، لتجاوز حالة الانهيار العصبي.

تم إبلاغ الشرطة، التي لا يبعد مركزها سوى 200 متر عن المستوصف. ولم تمضِ دقائق حتى وصل ضابط برفقة اثنين من معاونيه، أحدهما شرطي يحمل بندقيته، والآخر برتبة عريف يحمل ملف التحقيق.

عاين العريف الكدمات في وجه العروس وجسدها، وسجلها في دفتر الحوادث، فيما كان الضابط يستنطقها، وهي تجيب بصوتٍ خافتٍ مبحوح، تتخلله آهات ألم وحزن داكن، يخزق جوارحها كالسكاكين.

كان هناك جرحٌ بليغ تحت الجفن الأيمن، ونزفٌ في الشفة السفلى، وكدماتٌ في اليدين والقدمين والظهر. تمتمت بكلماتٍ تذم فيها زوجها، واصفةً إياه بالوحشي، الجاهل، الغبي، وقالت: ....

– يتهمني بشرفي، والله إني بريئة من كل تهمة كالها لي هذا الكلب...

المشكلة بدأت في ليلة دخلتها، تلك التي انتظرتها طويلاً، منذ اللحظة الأولى لفهمها معنى الحياة. ليلةٌ كانت تأمل أن تكون بداية الجزء الثاني من فيلم سيرتها الذاتية كامرأة، بعد أن أسدل الستار عن الجزء الأول من عزوبيتها.

بعد أن طوت حياة اللعب والعشق والمراهقة، تبدأ أهمية الفصل الثاني من سيرة الحياة. فصلٌ متخمٌ بالوقائع الحلوة والمرة، معلّقٌ بخيوط أحلامها البنفسجية. إنها مرحلة تنغرس فيها الجدية، ويُزرع فيها العمل والتخطيط للمستقبل البعيد؛ حياة زوجة، وأمومة، وأولاد، وعمل، وتربية.

أسمى أهداف المرأة في الحياة أن تنعم بصفاء العلاقة الزوجية، وتعيش بهدوء وكرامة تحت ظل زوجها، أن تنصهر بعواطفه في علاقة وطيدة، وتبلغ ذروتها حين تنجب منه طفلًا أو أكثر، فيصبح جدارًا تستند عليه لترتيب أولويات رحلتها الطويلة في السفر القادم من العمر.

المرأة دون طفل كغرفة بلا أثاث، حياة فارغة من البهجة والحركة، قفارٌ أجرد لا روح فيها، ناقصة بلغة الطبيعة. فالأمومة ليست مجرد دور، بل عالمٌ مجهول لا تفهمه إلا من دخلت حدوده، وتنشّقت عبقه، ومارست دورها فيه كسيدة. حينها تتجسد المعاني الحقيقية للمرأة، وتبلغ الأمومة قمتها، وتتحقق السعادة في أسمى صورها.

الحياة بعد الزواج تعني أسرة، كيان، واستمرارية. الإنسان بعد الزواج لا يفكر إلا بعقلين، ولا يعيش إلا بقلبين. لا يحلم ولا ينسجم إلا حين يتحول مع شريكه إلى مزيج من الوشائج والألفة، يتقاسمان الأحزان والأفراح كما يتقاسمان رغيف الخبز.

كانت الزوجة قد انتظرت طويلاً، حتى أمسكت بتأملاتها، وكَسرت مرآة عزوبيتها. لكنها في ليلة دخلتها لم تنزف بكارتها سوى بياض الدم. لم تتلون فوطتها البيضاء بحمرة الشرف. حينها جن جنون الزوج. لم يمنحها فرصة للدفاع، بل انهال عليها ضربًا، كأنها دمية بين يديه، مكبّلة تحت قدميه، عاجزة عن النطق أو المقاومة. لم يسألها، ولم يصدقها، بل لم يكن مستعدًا لسماع أي عذر.

سحلها من شعرها أمام الملأ، قادها كالنعجة إلى الشارع، تتبعه بخطوات متراخية، ساقٌ تلتف على ساق، قابضًا على يدها الرفيعة كمن يمسك بطرف عود من القصب بكماشة غليظة. تلك الحورية التي تأملها طويلا، باتت تتلوى بين يديه كثعبانٍ جريح. دموعها انهارت، وصخب أنينها لم يسعفها. دفعها بقوة إلى داخل سيارة الأجرة، هددها بالقتل، بصق على وجهها الناصع، كأنها لم تكن يومًا من توسّل إليها ليكون زوجًا لها.

الناس، بطبعهم، لا يتدخلون دون معرفة، لذا اكتفوا بالنظر باستغراب، وكأنهم يشاهدون مشهدًا تمثيليًا حيًا. الآراء تضاربت، أحدهم ينصف الرجل، وآخر ينصف المرأة، والحقيقة معلّقة في غارب الظن.

تقطرت الدماء على ثنايا ثوبها الرمادي البراق، ذات الأشرطة الصفراء. فقدت الإحساس بالألم، بل فقدت حواسها كلها، ومشاعرها تبخّرت بعد أن ألصق بها تهمة البغاء.

لم يكن الألم هو ما أوجعها، بل عصف الشرف الذي داهمها على حين غفلة. اجتاحها طوفان السخط قبل أن تلملم أوراق حلمها. غربت شمس السعادة في ليلة ميلادها. تحولت إلى قطعة جماد، لا روح فيها، لا سمع، لا بصر. وطأة الصخب، وصوت الضرب المنهمر كالمطر، أفقدها صوابها.

بكفه الغليظة ثلم فمها، أخرس لسانها، صبغ شفتيها بحمرة الدم، ووجهها بلون زعفران الخجل.

دخلت في غيبوبة من شدة الصدمة، ارتقت حالتها إلى درجات الشيزوفرينيا. لم تعِ ما حولها، ركنت إلى دكة الصمت، ولم تستعد وعيها إلا بعد أن رُشّ وجهها بالماء البارد، ثم زُرقت بحقنة مهدئة لتستعيد ذاتها.

كسفت شمس سعادتها، دبّت القشعريرة في جسدها، أفسد حلمها الفتي، أفسد فرحها في يومٍ كانت تعتبره الأسمى في حياتها. حلمٌ راودها منذ أن اقتحم فكرها سلطان الوعي، ودغدغ قلبها شغف الحب. لكن الرياح جاءت بما لا تشتهي السفن. جعلت لحياتها عناوين بؤس شتى. كانت تلك أولى الكبوات التي لم تخطط لها، نزلت كالطامة على رأسها، كسرت مرآة عفتها التي طالما كانت أمينة عليها.

أصبح للهم السليط حبل التفَّ على عنقها، قيد حريتها، فلن تمشي كما سبق، ولا تضحك كما سبق، ولا تفكر كما سبق. تجربة مريرة دكت عفتها، جعلت من جلدها حسيرة لمداس الزمن

\\\\\\\\\\\\

المسألة تحتاج إلى مرونة، إلى مطاطية في فهم المجتمع، وإلى قواعد راسخة في علم النفس. فالعقدة لن تنجلي رواسبها من الأذهان والقلوب دون فعل واعٍ من قبل الزوج. بل بالأحرى، تحتاج إلى قدرة إلهية لترميم صدأ الجدران، الناتج عن عبثية مفرطة في التعامل.

المخلفات المترسبة في قيعان المجتمع هي ذاتها من صنعت المشكلة. وقد نحتاج إلى جيل أو أجيال لتشطف ترسبات العقد من أحواض الوعي الجمعي، من الأعراف والتقاليد الغائرة، التي زادت من تعقيد المسألة. فهي لا تحتمل

الإسفاف في إدارتها، ولا يمكن تجاوز تأثيرها بسهولة، ولا هي بالأمر الهين للقبول بها. إنها من العقد التي تحتاج إلى تنازل القمم عن مواضعها.

المشكلة فيها من الهشاشة ما يغوص بها العقل، ومن الصلابة ما يتكسر عليها العظم. يصعب وصفها لتشبثها بملابسات الأعراف والتقاليد الدفينة. وفي ظني كطبيبة، لم يكن من السهل أن أغض الطرف عن أساس العقدة، فهي من الأقدار المليئة بالقسوة النفسية، والعنف، وقلة الحياء. فيها تعسف أعمى، برع في حفر تجاويفها الظن السيء، والتخلف، والجهل.

أما الرجل الذي كان يرعد ويزمجر كبطلٍ همام، واثق من ظنه وتصرفاته، فقد ألحّ بشدة على إجراء الفحص لعروسه، راغبًا في إثبات براءته من الملامة على فعلته الشنيعة. كأنه لا يدرك أن للحق سطوعًا يخترق حاجز الظلم مهما جنّ وعلا، وأن للحق نورًا يراه الجميع من خلف الجدار.

الحقيقة دائمًا ما تكون حبلى، أو تكون كحيلة العين، تجذب الانتباه، كفتاةٍ بتول في العشرين من عمرها، لا تكبر ولا يخمد بريقها، وإن كانت مدفونة تحت صرة الحرج والخجل. الحقيقة أشبه بولادة هلال جديد، تبحث عنها بين هباب الشك.

أراد الزوج أن يثبت للآخرين سوء ظنه بها، أن يطعنها في عفتها وشرفها بلا دلائل مقنعة، متوقعًا فقدانها بكارتها قبل أن يلج بها..... ترى، بأي روحية تصرف؟ ماذا سيجني من فعلته النكراء سوى العار واللوم والكراهية؟ أنا أتكلم هنا كأنثى، لا كطبيبة. أنانيته لا تُفسر إلا بالتساؤلات التالية:...

ما الغرض الحقيقي وراء سعيه المستميت للتنكيل بها؟

لماذا القذف المقزز بشرفها؟

لماذا التمسك ببند الفضيحة؟

ألم يكن الصمت والتأني أفضل الطرق؟

لقد شوّه صورته قبل أن يشوّه صورتها أمام المجتمع. تصرف دون لياقة أو لباقة، دون إدراك أن العواقب ستعود عليه. هل فعلاً خيّبت أمله في حلمه الذي كان ينشده؟ هل انتقم لشرفه؟ أم للمبالغ التي صرفها على عرسه؟ أين تكمن الحقيقة في دافعيته العدوانية؟

ولو فرضنا أنه كان يبحث عن الشرف، فما هو مفهومه الحقيقي للشرف؟

الشرف يُعرّف بأنه الهوية الشاملة للإنسان، التي تعبر عن تكوينه النفسي، والروحي، والخلقي، وتبرز في سلوكه الشخصي والاجتماعي. الشرف الحقيقي يعني: الكرامة، النخوة، النزاهة، الصدق، الأمانة، المروءة، الشجاعة، الإحسان، العفة، والتضحية بالمال والنفس من أجل القيم..... بهذا المعنى، الشرف لا يتجزأ، سواء على المستوى الشخصي أو الاجتماعي. ومن يحمل تلك الصفات، فهو شريف بأعلى المراتب، خاصة الوطنية منها. العلاقة بين الإنسان والشرف علاقة صميمية، جدلية، لا تنفصم.

قال المتنبي:...

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى - حتى يُراق على جوانبه الدم

وقال ميخائيل نعيمة: شرف الإنسان في إنسانيته؛ فإن افتقدها، فقد شرفه وتجرد من إنسانيته.

وقالوا: كنز الشرف أفضل من كنز الذهب.

ومن علامات الشرف: إغاثة الملهوف، كما فعل المعتصم حين لبّى نداء امرأة أسيرة في عمورية، فخرج على رأس جيش عرمرم لإنقاذها، وكانت تلك الصيحة سببًا في فتح

عمورية.

عـزة الـنفس، كمـا يُـروى عـن قـيس بـن زهيـر حـين أصـابته فاقـة، فلـم يمـد يـده لأحـد، واكتفـى بالصـبر علـى الحنظـل المـر حتى ضعف ومات.

وللشـرف معـانٍ كثيـرة: فالعـالِم، والحـاكم العـادل، والمجاهـد، والمحسـن، والصـانع، والتـاجر، والمـزارع، متـى مـا كـانوا أمنـاء في عملهم، فهم شرفاء.

أمـا الشـرف الـذي يقصـده الـبعض بانتقائيـة، فهـو مـا يتعلـق بسلوك الفرد، وهـو جانـب مـن جوانـب الحيـاة، لا ينبغـي حصـره فـي زاويـة ضـيقة مقرونـة بسـوء سـلوك الـذكر أو الأنثـى. هـذا المفهـوم يمثـل إحـدى فضـائل سـلامة الفـرد والعائلـة، والتـي تؤدي إلى صلاح المجتمع بأسره.

الشـرف الحقيقـي لا يُقـاس بالـدماء، مـن يسـعى فـي الأرض فسـادًا، رجـلاً كـان أو امـرأة، ويمـارس الرذيلـة ويتبنـى طـرق الفاحشـة، فإنمـا هـو عـديم الشـرف، فاقـد للكرامـة والإنسـانية. الفسـاد لا يقتصـر علـى الأفعـال الجنسـية، بـل يشـمل الغـش، الإهانـة، القتـل، الحـرق، الاغتصـاب، التعـذيب، مصـادرة الأحـلام والطموحـات، وحتـى التحـالف مـع أعـداء الـوطن أو الاسـتقواء بـالأجنبي. هـذه هـي المقـاييس الحقيقيـة للشـرف، التـي يجـب أن نقـيس بهـا تصـرفات الآخـرين، لا قطـرات دم علـى ملاءة بيضاء.

فـأين نضـع العـريس الـذي ارتكـب فعلتـه الشـنيعة بحـق عروسه، على ضوء هذه المبادئ؟

لا يـزال كثيـرون فـي مجتمعاتنـا يربطـون شـرف الفتـاة بقطـرات دم فـي ليلـة الزفـاف، متجـاهلين الحقـائق العلميـة حـول غشـاء البكـارة، الـذي يختلـف مـن فتـاة لأخـرى فـي الشـكل والنـوع وكميـة الـدم الناتجـة عـن فضّـه. هنـاك سـبعة أنـواع لغشـاء

البكـــارة: الحلقـــي، المطـــاطي، الهلالـــي، الغربـــالي، الهـــدبي، الفســتوني، والحــاجزي. بعضــها لا يُفــض إلا بــالولادة، وبعضــها لا ينــزف إلا بعـد تكـرار الجمـاع، وبعضـها لا يُظهـر دمًـا علـى الإطلاق.

حــين اســتدعيت العــريس إلــى غرفتــي، كــان كــالمجنون، مـذهولًا ممـا يسـمع ويـرى. شـرحت لـه أنـواع الأغشـية بالصـور، ليهـدأ ويبـدأ فـي إدراك حجـم الكارثـة التـي افتعلهـا. عنـدها تحـوّل مــن أســد مفتــرس إلــى فــأر مــذعور، يطــأطئ رأســه خجــلًا، يتصـبب عرقًـا، ويغـرق فـي ندمـه. لـم يعـد يملـك مـا يـدافع بـه عـن نفسه، فقد انكشفت هشاشة ثقافته، وتعرّى جهله أمام الجميع.

طلبـت منـه أن يرافقنـي إلـى عروسـه، التـي كنـت قـد أجريـت لهــا فحصًــا أوليًــا، وتيقنــت مــن أن غشــاء بكارتهــا مــن النــوع المطــاطي الــذي لا ينــزف إلا مــع ولادة طفلهــا الأول. حــين رأى ذلـك بعينيـه، انهـار باكيًـا، يعتـذر ويتوسـل، يقبّـل قـدميها ورأسـها، لكن هيهات أن تُصلح الجرة بعد كسرها.

المشـكلة تجــاوزت حــدود الاعتــذار، وأصــبحت بحاجــة إلــى وســاطة مــن وجهــاء العــائلتين، وخبــراء فــي الإصــلاح الاجتمـاعي، لتجنـب نزاعـات عشـائرية قـد تشـتعل بسـبب الجهـل وسوء الفهم.

أمــا العــروس، فكانــت بحاجــة إلــى رعايــة نفســية وجســدية مركــزة، لتتجــاوز آثــار الصــدمة، وتســتعيد توازنهــا الــداخلي. ســتلازمها الكآبــة لفتــرة، ولــن يســعفها إلا صــلحٌ حكــيم، يقــوده أصــحاب رأي يتصــفون بالحيــاد والحكمــة، بعيــدًا عــن العصــبية والانحياز.

العقدة في هذه المسألة أن المرأة، حتى لو كانت على حق، تبقى ضعيفة أمام المجتمع، وتُجبر على التنازل كي لا تُلام. وهذا ما يجب أن يتغير.

# 8- الصدمة

جميل وفتنة: قصة عنادٍ أكلته السنون

قطع جميل شوطًا طويلًا في مضمار حياته، لكنه لم يفلح في تليين الظروف لصالحه، ولم يتمكن من فك طلسم العقدة التي أُبرمت حول حلمه بعروسه المنتظرة، ابنة عمه فتنة. رغم قربه منها نسبًا، كأنما هو أقرب من حبل الوريد، إلا أن المسافة بين قلبيهما كانت أبعد من مدارات الكواكب.

تعقدت أموره، وضاقت عليه السبل، وأسدل الستار على النوافذ التي كان يتأمل منها قبس سعادته. عاش في دوامة صمت مجحف، أطبقت على فكره، حتى وجد نفسه يخسر كل شيء في محفل الحياة.

إصراره على امتلاك فتنة كان موازياً لعنادها وكراهيتها له. كانت صلبة، حادة، لا تأبه أن تكون تحفة يتباهى بها. تمسكت برفضها القاطع، بينما هو تشبث بها كحق شرعي حسب الاعراف، مستندًا إلى جذوره القبلية والتي لاتزال تردد: "بنت العم لابن العم".

حاول مرارًا أن يلين عودها الصلب، لكنها أوصدت الأبواب في وجهه. شخصيتها القوية أجبرته على احترامها، وعلى انتظار موافقتها وتحمل مرارة الصبر. كانت فتنة بحق، فتنة شرسة لا يمكن تجاوزها، جعلته يقتنع بأن الحياة دونها لا طعم لها. هجس بها كمقود يدير به شؤون رحلته الطويلة، ونظر إليها كما ينظر الجواهري إلى مكنوناته، تحفة لا تُفرّط.

لكنها لم تثنه عن عزمه، ولم تجد فسحة لحياتها خلال عقدين من العناد المتبادل. كانت أشبه بصرة محكومة بالنسيان، أقفل على حظها وتأملاتها بعنادها. وعلى الرغم من

هاجس الخوف الذي سطا عليه بعد أن تخطى مرحلة الشباب، بقي جميل جالسًا على رأس الطريق، يمنع كل من يقترب منها، منتظرًا رجاءها الذي تلاشى مع الزمن.

كان يافعًا حين تقدم لخطبتها، لم يتجاوز الخامسة والعشرين. أما الآن، وقد مرت عشرون سنة، فقد ذبل عوده، وأصفرت أوراقه، وانكسر ظله، لكنه بقي متمسكًا بها. حارب كل من سعى للتقرب منها، وأحرق كل فكرة استفحلت باسمها، حتى لو كانت همسًا في نجوى عاشق.

عنادها زاده إصرارًا، وكلما ازدادت فتنة جمالها، ازداد هو عجرفة وتمسكًا. ومع مرور السنين، كبرت العقدة، وعرف بها القاصي والداني، حتى التفت خيوطها على ساقيه ويديها معًا.

أما فتنة، فقد أبحرت في مركب العناد، وحاولت الارتباط بغيره دون أن تفلح. لم تتوقع أن للزمن سطوة، وأن النار التي أضرمتها بيديها ستحرق جمار عمرها. بدأت تشعر بوخز العنوسة، يترك آثاره على وجهها وجسدها، آفة تجذرت في الفكر قبل أن تظهر على الجسد.

ترهلت عضلاتها، وظهرت هالة السواد حول عينيها، وتكورت الأوهان على جدران القلب والجفن والشفة، كأنها وهن العنكبوت. أضحت تلك الآفة لمعة في عيون الناس، إحساسًا ينخر جبل الصبر كنخر العث لجذع الشجر. افتقدت زينة الألق، تبددت الأحلام، وتجردت من سمة الحبور والفرح.

\\\\\

ما إن هجست بـ كش ألق الفتنة، حتى بردت جمرة العناد التي كوِيت بها قبل أن تكوي بها ابن عمها. ذبلت نضارة الجسد، وابيضّت ذوائب الفودين، وشفّ جدول الشباب،

وخفّ بريق النهدين. أحسّت بانكسار في قامتها، وبهوت في نورها. ملت الجلوس تحت مظلة الانتظار، هجست بخشونة مقعدها، لم تعد تجيد المناورة ولا المقاومة أمام تآكل جدران أنوثتها.

تيقّنت أخيرًا أن لا حلّ سوى الرضوخ لابن عمها. لم تجد من يرمي حجره في مستنقعها ليحرّك أمواج القلب بعيدًا عنه، ذلك الذي وقف سدًا منيعًا أمام كل من تسوّل له نفسه العبث بمياهها.

قررت أن تتجرد من عجرفة المناورة، تعلمت الدرس واتصفت بالعقلانية، بعد أن صقلتها التجربة المريرة. غدت جمرة عنادها رمادًا تهفّ به الريح، هجست ذاتها في خريف العمر، لم تعد تحتمل سقم الزمن. تحوّلت من نمرة شرسة إلى قطة أليفة. أدركت أنها وصلت إلى نهاية المطاف، وأن العقدة لن تُحل إلا بتنازل أحد الطرفين عن عرشه. تيقّنت أن ابن عمها أضحى كمسمار صدئ في موضعه، لا يُقلع. تلك الحالة أوصلتها إلى مرحلة الاستنزاف. لم تعد في المقدمة، بل باتت تزحف خلف قريناتها في الركب. وقبل أن تتجاوز فاصل العنوسة، قررت أن تعيد النظر في إصرارها وقرارها.

بدأت تطرق حلولًا وسطية لإنهاء الأزمة التي تعفّنت في الظلمة، تبحث عن بصيص ضوء في عتمة الطريق. ومن تحليل شخصية ابن عمها، أدركت أنه لن يتخلى عن موقفه، فقد ضحّى ببذرة شبابه، وما بقي من العمر لن يزيد عمّا مضى. القضية أصبحت بالنسبة له مسألة كرامة.

الأسباب جعلت أسافين العناد تثبت في خاصرة الزمن هي ذاتها قلعتها عن موضعها. لم يعد أمامها سوى أن تتحرك بذاتها لكسر الجمود القائم، خاصة بعد أن افتقدت رونق الحسن وعصا الأنوثة. لذا أنصبت أفكارها على تسليم تفاحة

أنوثتها لسيف ذكوريته، عسى أن تجني ثمرة أحلامها بعد أن تجاوزت السابعة والثلاثين.

وعلى غير العادة، فاجأته بالموافقة على الزواج. قرارها كان أشبه بقنبلة موقوتة فجّرتها بين يديه، لم تترك له فرصة التهيؤ والاستعداد. الغبطة فضحت أساريره، وإن جاءت متأخرة. المفاجأة أعادت له حيويته، لم يصدق أنه يلمس باكورة صبره بعد عناء أرهقه.... وأخيرًا، صار الحلم قاب قوسين أو أدنى. تلك العقدة التي قوضت صبره ونخرت لبيب عمره، تفتّت بفعل الزمن. أصبح لنضوج الفكرة أصداء في النفس، ولابد من قطاف الثمار. جرد نفسه من كل اهتمام إلا تهيئة بهرجة العرس، ليكون في مقام يليق بصاحبة المقام، ويتجنب انتقاد الأقارب والعقارب.

أشرقت شمس الحلم من جديد، أوقد شموع ليلته المرجوة بكل ما فيها من سحر وبهاء. إنها ليلة الهناء، تلك التي جاهد من أجلها عبر السنين العجاف. ابتدأت بضيافة القمر، فازدادت الأنوار بهرجة وبريقًا، وساد الجو هدوء نثري غطّى على متاعب العمر.

لكن على قدر أهل العزم تأتي العزائم، وعلى قدر الانتظار المرّ، كانت الصدمة الثانية. ففي ليلة الدخلة التي انتظرها، انطفأت شمعة ذكوريته تمامًا أمام تفاحة أنوثتها. لم تتوهج رجولته قط. انهار مغشيًا على وجهه، فقد سلبه الزمن كل شيء.

حاول جاهدًا تخطي قنطرته الأخيرة دون جدوى. لم تتحرك ذبابة الغريزة في جسده. كسرت هيبته أمام صرح أنوثتها، لم يستطع إرضاءها ولا إرضاء ذاته. عطفت عليه، حاولت استثارته، شدّته إلى صدرها مرارًا، لكنه لم يستعد نبضه.

تفصّد جبينه بالعرق، أحسّ بطوفان الهمّ يجرفه. إنها النهاية. انهار جبل الثلج بوقع حرارة الأجواء. صكّ فاهه، فلم ينبس بشفة. أصبح في تيه من أمره، عاقبه الزمن على جريرة فعله، وثأر منه بالقسوة ذاتها التي فرضها على ابنة عمه.

بعد أن تجرد من كل شيء، بعد أن قتل ذاته ومن أحب، تخلى عن حلمه إلى الأبد.

لا تكن كالسيف على من تحب
فالزمن كفيل بثلم السيف
الشمس إن اختفت فلن تغيب أبدًا
وما من مجانة تزجل بالكيف

# 9- الرحلة المؤجلة

لم يكن تجمعنا في محل سكنانا إلا صدفةً ولدتها الغربة اللعينة؛ تلك التي لا يشعر بمرارة صبرها إلا من تجرّع ألم الهجر، بحثًا عن صيغة حياة مقنعة في مغارب الأرض. غربةٌ قاسية منحتنا صداقةً ما من خيارها بد، فرضتها الظروف، وصاغتها الأقدار على هيئة نكدٍ دنيويٍّ ارتديناه كيفما اتفق. عشنا خلالها صداقةً آنية، مرحلية، غير مقنعة، تربّعت على أكتاف الظرف، وأتحفت طابعها بلغز الحياة.

كنا ثلاثة مدرسين جمعتنا المصادفة لنقطن في عزلةٍ داخل مبنى جديد ملحق بآخر، تعود ملكيته لأحد أشياخ اليمن. المبنى عبارة عن "دولج" مكوّن من ثلاث غرف صغيرة مصطفّة أفقيًا، يربط بينها ممر ضيّق بعرض مترين، ينتهي بسلم يؤدي إلى فنار الأرض. الغرف المعزولة تكاد تكون أشبه بسرداب، مدفونة في الأرض إلى حدّ أن نوافذها بالكاد ترتفع عن مستوى التراب. يقع هذا السكن في حي الحصبة، أحد أحياء مدينة صنعاء، عاصمة اليمن.

سكنّا فيه نحن الثلاثة: أنا، وزياد، وإياد. اخترناه لحداثة بنائه، وقربه من مدارسنا، ولأنه غير مأهول من قبل، فضلًا عن موقعه الهادئ البعيد عن صخب المدينة، واستقلاليته التي وفّرت لنا شيئًا من الخصوصية. أما الحمامات والمطبخ، فكانت مشتركة، تقع في نهاية الممر من جهة اليمين، تخدمنا جميعًا في تلك العزلة التي فرضتها الغربة، وصاغتها الحياة على طريقتها الخاصة.

كان إياد يتصف بالثرثرة المفرطة، وقصر القامة، وفرط البدانة، حتى ليخيل إليك أنه أقرب إلى عجائز النساء في جلسات المقاهي والدواوين، يروي القصص كما لو أنه

عاشها، لكثرة ما حفظ من أحداث سمعها. تفكيره يكاد ينحصر في بطنه وشهواته، لا سيما الطعام، يلتهم كل ما يصادفه في طريقه كجرادٍ يزحف على الحقول. ممتلئ البدن، أبيض البشرة، حسن الملامح، يتقدّم كرشه على صدره، فيما أردافه بارزة بشكل لافت، تهتز معه في مشيته المتهادية. يدخل أنفه في كل نقاش، يدّعي الفهم والمعرفة رغم محدودية معلوماته التي يستقيها من جلسات المقاهي والنوادي الليلية. أحاديثه أحيانًا تبدو كأنها مقتطفات من بانوراما خيالية، أو أساطير لا سند لها، ومع ذلك، يتمتع بخفة ظل ومرحٍ لا يُنكر. ضحكته صاخبة، تهزّ جسده كالنابض، ويصاحبها صوتٌ أجشّ ينحدر من أعماق صدره، يشبه قهقهة الأطفال في عفويتها، حتى أننا كنا نضحك على ضحكته أكثر مما نضحك على النكتة ذاتها.

أما زياد، فقد تعرفت عليه خلال الرحلة، لكن علاقتي به لم تكن وثيقة، نظرًا لما يُؤخذ عليه من طبع الحسد، الذي يلتصق به كما تلتصق الشعرة بالجسد. أحيانًا يبدو وكأنه يحسد نفسه إن لم يجد من يحسده، فالهوس يطغى على سلوكه، والضغينة تنبعث من كلماته وانتقاداته التي لا تنتهي، فلا يعجبه شيء، ولا يرضى عن أحد. في عينيه شرارة حسد متقدة، وفي ملامحه جمودٌ حادّ، يشكّل حاجزًا يمنع الآخرين من الاقتراب منه أو الاندماج معه، وكأن بينه وبين الناس فجوة لا تُردم.

أما أنا، فكنت مختلفًا عنهما تمامًا. كنت أمتلك أثاث مطبخ شبه كامل، لولعي بالطبخ، وأمسك بزمام الأمور بتوازنٍ واضح. كنت حريصًا على العدالة في تعاملي، متزنًا في قراراتي، سواء كانت مادية أو اجتماعية أو نفسية. لا أحب النفاق، ولا أمارس الكذب أو الثرثرة. أجهل البغضاء والحسد، وتكاد تكون النية الطيبة، والبراءة، والصدق،

والبساطة سمات تتحكم بتصرفاتي، بل إنها الثوب الأنيق الذي يُبرز ملامح شخصيتي في كل محفل.. فلا أعير أهمية للمال ولا يغرني جاه، ولا يسعدني منصب، كريم نفس، ليس لي علاقة بالموبقات، ولا أجامل على حساب الحق، أحترم ذاتي وأراعي الآخرين - لذا تجدني أشبه بالرأس الجامع بين الأقطاب المتنافرة في دائرة الوحدة التي تجمعنا.

***

كنا نتدحرج مع روتين الأيام بسلاسة، دون تعقيد يُذكر، نعيش أوقاتنا بين المدرسة والتجوال، نمضي في نمطٍ ثابت لا يتغير، حتى باتت الأيام تأكل بعضها بعضًا بذلك النسق الرتيب، إلى أن بلغنا نهاية السنة الدراسية في أواخر شهر مايو. حينها، انقلبت الدفة عن مسارها المعتاد؛ إذ شرفنا بالسكن الأستاذ فالح، قادمًا من إحدى القرى، ذلك الشاب الثلاثيني الذي أكرمه الشيخ، مالك المبنى، بأن جعله ضيفًا علينا دون استئذان، ودون سابق معرفة، فقط لأنه كان يدرّس أولاده في القرية.

فوجئنا به ذات صباح، نائمًا في الممر الضيق تحت درجات السُلّم، وذلك قبل نحو شهر من موعد سفرنا إلى أوطاننا، بعد أن أنهينا عامنا الدراسي. عرّفنا بنفسه- الأستاذ فالح، مدرس مادة العلوم في إحدى قرى محافظة مأرب، وكان يُقدّم دروسًا خصوصية لأولاد وأحفاد الشيخ بلا مقابل مادي. في المقابل، كان الشيخ يغدق عليه بكرمه، في مأكله ومسكنه، معتبرًا ذلك تعويضًا ومساعدة آنية له.

كان الأستاذ فالح هادئًا، منطويًا، لم يسعَ إلى التقرب منا أو الاندماج في تجمعنا، ولم يحاول حتى مجاملتنا. ومن خلال الملاحظة، اكتشفنا فيه صفة البخل والقتر المفرط، الذي بدا وكأنه نال من صحته وعافيته الشيء الكثير، حتى بدت عليه

ملامح البؤس المتجهمة، وكأنه غصن أجرد، فاقد للجاذبية، محنّط بالهم والغم ومرار الزمن.

تحمّل مشقة الجوع والذل في سبيل توفير بعض الريالات التي لا تسمن ولا تغني من جوع. فعلى سبيل المثال، لم نره يتبضع حاجات لأهله قبل سفره، ولم يدخل مطعمًا لتغيير نمط حياته، ولم نشاهده طوال شهر مكوثه معنا يتناول طعامًا صحيًا. كان يعتمد في معيشته على عطف الشيخ اليمني، الذي يغدق عليه بفتات طبخه، أو على سلطة الطماطم والبصل مع أقراص الخبز، يسد بها رمقه.

ذلك هو المنهج الذي تمسك به وسار عليه خلال فترة إقامته معنا، إلا في حالات نادرة؛ حتى حان موعد سفره.

بطوله الفارع، ونحول جسده، وسمرة بشرته، بدا أشبه بعمود إنارة انطفأت أنواره. تنبعث منه رائحة عرق نفاذة، نتيجة قلة استحمامه وافتقاده للعناية الشخصية؛ لذا لم نلحّ عليه كثيرًا للاندماج معنا، ولم نحاول مجاملته لانطوائه الشديد وصمته العميق. كان في وحدته كالصندوق الأسود، مغلقًا على ذاته، لا يبادر بالحوار أو المشاركة، ولا يسعى للتقرب أو التفسح معنا في شوارع صنعاء. ونحن، من جانبنا، لم نحاول إدماجه في ألفتنا، احترامًا لخصوصيته.

وبسبب وضعه البائس، رقّ قلبي عليه، فعرضت عليه إن كانت له حاجة فلا يتردد في طلبها. وبالفعل، طلب مني أن أضع حقيبته الكبيرة، المحمّلة بأسراره وهداياه وأشيائه الخاصة، والمعدة للسفر، في غرفتي، فرحبت بذلك دون تردد.

مرت الأيام مسرعة، وكنا في منتصف شهر حزيران من عام 1997، نترقب ساعة السفر والعودة إلى ديارنا، بعد أن لسعتنا سنوات الغربة بالعناء، وسلبت منا نضارة الشباب،

ووشمت وجوهنا بصفرة الزعفران، وعزلة التوحد لطول الفراق. كنا ننتظر العودة بفارغ الصبر، وفق جدول وضعته مديرية تربية صنعاء، الذي راعى الأولوية لمدرسي المناطق النائية عن مدرسي العاصمة.

خلال فترة انتظارنا أعددت سمكة كبيرة من نوع الهامور، تزن نحو أربعة كيلوغرامات، كمأدبة عشاء ووليمة وداع بيننا، رغبة في كسر روتين الحياة اليومية، وتخليد تلك الألفة بذكرى عطرة. فالذكريات، كفصول السنة، تتجدد وتستعيد حيويتها مع مرور الزمن، وتغمر نفوس أصحابها بالرحمة والحنين.

في مساء السبت الثاني من حزيران، كنتُ وزياد شوينا السمكة بأحد أفران مخابز الصمون ( الروتي)، اجتمعنا أنا وزياد وإياد وضيفه حول صينية معدنية قطرها خمسون سنتيمتراً، تفترشها سمكة مشوية، كأنها لوحة فنية تتوهج بألوان الشفق. كنا في غرفة متواضعة، مساحتها ثلاثة في أربعة أمتار، مفروشة بطنافسة خضراء من النايلون، وبها سرير وخزانة ملابس صينية الصنع.

جلستُ بمواجهة الباب، زياد إلى يساري، ضيف إياد إلى يميني، وإياد قبالتي. كانت الساعة تشير إلى الثامنة مساءً، جلسنا حول المائدة كوحوش جائعة، نود افتراس السمكة بشيء من الهمجية، أعيننا تحاصرنا من جهة والشواء الذي أزكم أنوفنا وأغرى نفوسنا من جهة أخرى. السمكة تتلألأ بلون النضوج، أطرافها وعظامها في وسطها منغمسة في دكنة شهية، حوافها وذوائبها مسودة بسواد النار، تتراقص فوقها شرائح الطماطم والبصل والفلفل الأخضر، كأنها لوحة سريالية مغنجة بالإثارة، تثير الشغف وتغري المعدة.

استفحلت شهواتنا، وانبثقت أنفاسنا المتلهفة خلف اللهفة،

كـأنَّ الـزمن انـتفض مـن سـباته، يحـاكي لحظـة عشـق أزليـة بـين نواجـذ الفـم ونـداوة اللحـم المقـدد. كانـت هدنـة قصـيرة تسـبق النـزال، نترقـب بهـا لحظـة صـافرة البـدء، نكفكـف لعابنـا، ونمسـح أفواهنا بأيدينا، استعداداً للعزف على أوتار النهم.

مـا إن أطلقـتُ إشـارة البـدء، حتـى تسـابقت الأيـادي كأنهـا تعـزف سـمفونية الجـوع علـى جسـد السـمكة، لـتملأ البطـون بلحـم المشـوي، والقلـوب بلـذة الشـبع التـي لا توصـف. امتـزج عبـق الشـواء برائحـة الفلفـل والطمـاطم والبصـل، وانسـكبت الشـطة والليمـون كخمـرٍ يسـكر الحـواس، فـذرفت العيـون دمـوع الاشـتهاء، وخـرت الأنـوف مـن لسـعة الحـرارة. صـار أحـدنا لا يفكر بصاحبه.

سـاد صـمت مهيـب، الكـل انشـغل فـي بطنـه وعينـه فـي تتبـع هبـر السـمكة، بعـد أن كانـت الأحاديـث تـدور حـول السـفر والوجبـات المؤجلـة. ونحـن فـي أوج صـراعنا، فـي ذروة العـزف علـى اللـذة، طـرق البـاب ربتـا خفيفـاً، كـان البـاب مفلجـاً بزاويـة ثلاثـين درجـة تقريبـا. كنـا لازلنـا فـي أول مشـوارنا، لـم تمـضِ سـوى لحظـات علـى بـدء سـباق الوليمـة، توجسـت النفـوس، توقفت الأيدي، وارتفعت الرغبة لمعرفة هوية الطارق...

مثلمـا أسـلفت، كنـت جالسـاً عنـد واجهـة بـاب الغرفـة، والكـل دار رقبتـه نحـو البـاب فـور سـماعه طقطقـة الربـت، وكـأنَّ الطـارق بطرقـه قـد قطـع حبـل الوصـل بـين الجـوع والسـمكة. ترقب الجميع الخبر الآتي بشغف.

فـي تلـك اللحظـة، بعـد أن تراخـت أعصـابنا، وصـرنا نمضـي خلـف بعضـنا وخلـف رائحـة الشـواء، نستحضـر اللحظـة باللحظـة دون إفـراط فـي الـزمن، متعقبـين جوعـاً بـدأ يـنكمش أمـام تطلعنـا... طـرق الأسـتاذ فـالح بـاب الغرفـة، يطلـب حقيبـة سـفره. شـدّ انتباهنـا، وجفـت عيوننـا، وتطـايرت الهـواجس وهـي تصـغي

لحديثه الذي سرق منا أجواء المتعة.

قلت له حينها:.....

تفضل يا أستاذ فالح، يا هلا بك، زارتنا البركة. شاركنا العشاء، لا زلنا في بداية المشوار.

فأجاب بأدب، وهو يرجو أخذ حقيبته:...

شكراً لك يا أستاذ، دام فضلك. أنا في عجلة من أمري، أستأذنك بأخذ حقيبتي إن سمحت.

قلت مستفسراً:.....

خيراً يا أستاذ فالح، لِمَ تأخذها؟

قال:...

أتمنى لكم إقامة موفقة وسفراً ميموناً. بإذن الله، هذه الليلة وفي تمام العاشرة والنصف ستقلع طائرتي، وأود أن أصل إلى المطار في الوقت المناسب.

قلت له:....

على الخير والبركة، إن شاء الله تصل بالسلامة... لكن يجب أن تشاركنا العشاء ولو بلقمة واحدة، لتتذكرنا.

ألحت عليه، لكنه اعتذر بأدب لضيق الوقت قائلاً:....

أعتذر منك أستاذي الفاضل، سامحني، ليس لدي وقت إضافي يسمح بذلك. يجب أن أكون في المطار قبل الإقلاع بساعتين.

اقترب من الباب، حيث كانت الحقيبة موضوعة بجانبه. مدّ يده بهدوء وسلاسة كما يفعل اللص، أمسك مقبضها وسحبها دون ضوضاء، سلت الحقيبة دون أن يدخل بكامل جسده إلى الغرفة، وكأنها حركة لصٍّ ماهر. فودعته قائلاً:..

الله معك، تصل بالسلامة، بلغ الأهل السلام.

فردّ:...

شكراً لك يا طيب.

وما إن انزوى خلف الباب، حتى ضرب زياد راحة يده بقوة على فخذه، قائلاً بصوت عالٍ:....

آخ... هذا يسافر وأنا أبقى!

قالها بغصة شديدة، ملؤها ألم وحسرة. خرجت الآه من أعماقه، وانطلقت عبارته كالسهم إلى قلب فالح، وكأنّ الصوت لم يُنطق بلسانه، بل من كائن آخر يسكن جوفه. كانت عبارته كعصارة سمٍّ سكبت في كأس الأستاذ فالح، الذي سمعها ملء أذنيه، دون أن يرد، لأدبه.

لكن عيني زياد قدحتا شرراً دون لباقة، وأحرقتا أوراق المسكين قبل أن ينطلق. لقد غالى كثيراً في سلوكه، وتجاوز قواعد الأدب والتعامل بين الزملاء. فالحسد يولّد البغضاء، وكلنا لمناه على فعلته القبيحة، فقلت خلفه:....

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ صدق الله العظيم. ما بك يا أخي؟ دعه يمضي، لماذا تحرجنا معه؟ ثم إنك إن تأخرت يوماً أو يومين فالأمر سيان، كلها أيام ضائعة، وكلنا راحلون، لم العجلة؟ ثم أنت رجل أعزب، لا ينتظرك أحد في الوطن.

ضحك زياد ضحكة ساذجة هههه لم نعهدها منه، وقال غير مبالٍ بما حصل:...

ألا ترى القذارة التي يحملها؟ ألا ترى أساه وجهامة شكله وكآبته؟ أيسافر مثل هذا ونحن ننتظر؟ هههههههه!

انفجرنا ضحكاً معه، حتى وصلت ضحكاتنا إلى أذني فالح، وكأن شيئاً لم يكن. فقلت لزياد مازحاً:...

والله يا زياد، على حسدك هذا لا أظنه سيسافر الليلة! هههههه.

قال إياد مستهزئاً وهو يشير إلى زياد:

وعند جهينة الخبر اليقين. هههههه.
وأضاف الضيف:..
أظنه فاجأه بقصف عشوائي. هههههه.
قال زياد:....
مـــاااع... ماااع... هههههههههه.
ضحك إياد وقال:....
دعنـا نعـود إلـى السـمكة قبـل أن تهـرب منـا، أمامنـا جولـة طويلة، لقد حضر بغير وقته. هههههه.
تحـول الحـديث إلـى هـزار، أغضـنا بـه زيـاد، احمـر وجهـه خجـلاً، لكنـه لـم يزعـل، وكـأن الأمـر سيان، قد تعـود عليـه. بعـدها بـدأنا نتجـاذب أطـراف الحـديث عـن فـالح، والسـفر، والسـمكة التـي لـم يبـقَ منهـا سـوى العظـام تشـهد علـى لـذتها، وعلـى المجاعـة التـي عبـر عليهـا هـؤلاء الشـرذمة. وبـين الجـد والهـزل، صـرنا نقصـف أسـلوب زيـاد، إذ لـم يتـرك لنـا فرصـة لتوديـع فـالح بشكل لائق.
فقلت مازحاً:.....
مسكين اتمنى أن لا تؤثر به عين زياد. هههههه.
قال إياد:.....
أرجو أن لا تحترق الطائرة به. هههههه.
قال الضيف:....
يا رب يصل بالسلامة.
قال زياد:.....
لن أدعه يسافر قبلي. هههههههههه.
قلت له:...
لِمَ يا زياد؟ ماذا فعل لك؟
قال:....
كبرت في رأسي، رجلي على رجله. هههههههههه.

ضحكنا خلفه، ثم انزوى كل منا في فراشه، نعيش تلك الأجواء بين الضحك والفرفشة، حتى غلبنا النعاس، ومضى كلٌ منا يتبع خرافة أحلامه.

في صباح اليوم التالي، حوالي السادسة فجراً، سمعت طرقاً خفيفاً على باب غرفتي. فتحت الباب، فإذا بزياد واقفاً يبتسم. قلت له:....

خيراً يا زياد، ما وراءك من الصبح؟

ضحك قائلاً:

هههههه، الأستاذ فالح نائم تحت الدرج! وحقيبة سفره بجانبه!هههههه.

قلت بدهشة:.....

هل أنت جاد؟

قال:.....

والله، هههههههههههه.

استغربت الموقف، وجلّ أصاب قلبي من غرابته. قلت له:

أكاد لا أصدق! دعنا نخبر إياد.

قال:....

تعال وانظر إليه...

أصبت بالدهشة، وبت أخاف من لسعة عينه الحاسدة. قبل هذا الموقف، لم أكن أؤمن كثيراً بالحسد، ولم أتوقع أن تكون له سهام من نار تحرق الفريسة. لكن بعد هذا الحدث صرت أتحاشاه، أتجنب الاصطدام به، أكتم أسراري وأخباري السارة عنه، وأتوخى الحذر منه. تعلمت منه درساً في المبالاة بأبسط أمور الحياة، وأثبت لي صحة النظرة المأخوذة عليه، فكان كما يقول المثل: "جنت على نفسها براقش".

خرجت مع زياد بهدوء لنخبر إياد، والدهشة مرسومة على وجوهنا، والضحكة محبوسة على أطراف أشداقنا، يشكمها

الخجل، لا نستطيع إطلاقها احتراماً لفالح، فالعلاقة بيننا لم تبلغ درجة الألفة بعد.

حيرة صماء كتمت أنفاسنا، دهشة راغت في هواجسنا، طغت على الوجوه، لا نستطيع أن نستكين على نار الصمت، يكبلنا وجل شفيف وخجل واستحياء من ردة فعله، كأنها تنتظر الفرصة المواتية لتنفجر وتنطلق لساحة الفوضى.

حين سمع إياد الخبر، التمعت عيناه بالعجب، رغم وشاح النعاس المسيطر على محياه. كان معروفاً بالأكل المفرط والنوم العميق، وشخيره يكاد يعبر لضفة الجيران. وجدنا ضيفه المسكين صاحياً في فرشته، يفرك عينيه من التعب الموشوم على وجهه، كأنه عوقب تلك الليلة بمشاركته إياد المبيت.

تحركنا نحن الثلاثة إلى مكان مبيت الأستاذ فالح، نمشي بهدوء كشياطين أربكها المفاجأة، نرتدي بجامات النوم، فيما كان إياد يرتدي لباسه البكيني فقط! هذه عادته، لفرط سمنه لا يطيق غطاء جلده.

كان الأستاذ فالح مطروحاً تحت السلم، أشبه بالمغمى عليه، مترنحاً تحت سلطان نوم شبيه باليقظة، متكئاً على عصا النكد، مغشياً بعصف قلق جاح ظنه، مشغول الفكر، مشتت الذهن، كئيب الملامح، تائه، ضائع، يتأمل معجزة تنتشله من نار الهم، مغمض العينين دون أن ينام.

دكنة العناء تغشي ملامحه، يختلف كثيرا عما كان عليه قبل وداعه تماما.

ما إن شعر بوجودنا حتى جفل في مكانه، كأن الشياطين حضرت فوق رأسه، تفاجأ بغارتنا المباغتة، فقلنا له بصوت واحد:...

صباح الخير يا أستاذ، ألم تقل إنك ذاهب إلى المطار؟

ماذا حصل؟ لماذا أنت هنا؟

كأنّ سؤالنا صفعة أيقظته من غفوته، سرقنا الوسن من عينيه، وجردناه من شروده. اضطرب، وجلس متربعًا على فرشته، والهم يغطي ملامح وجهه، ثم قال:.....

بلا، ذهبت إلى المطار! لكنني حين وصلت، تفقدت جواز سفري فلم أجده! كأنني نسيته في عجلة التاكسي التي أقلّتني!

وقبل أن يكمل حديثه، انفجرت بالونة الضحك من أفواهنا هههههه، كأن كلماته كانت شوكة غرزت في تلك البالونات، فانطلقت الضحكة من سجنها، أفرج عنها الأستاذ فالح بإشارة ضوء أخضر. اهتزت الجدران من شدتها، وانطلقت كطيور من أيكة الصمت، حرّة، طليقة.

ضحكنا حتى تهاوت طاقتنا، بينما إياد افترش الأرض، مستندًا إلى الجدار، يشهق بضحكته، وكرشه يهتز كالنابض، حتى صرنا نضحك على ضحكه واهتزاز كرشه.

وسط تلك الأجواء، لم أتمالك نفسي، فوجهت اللوم لزياد مازحًا:.....

والله يا فالح، ما منعك من السفر إلا عين زياد التي حسدتك! هههههه

انطلقت صيحات الضحك، وابتسم فالح رغمًا عنه، فأسعفناه بضحكة أقوى، كأننا مسحنا هالة الحزن عن وجهه، فانشرحت أساريره، وشفّ الحزن، وأسفر عن ابتسامة صفراء ملأت شدقيه، ثم قال لزياد:....

الله يسامحك يا زياد، لم تجد أحدًا غيري لتحسده؟ هههههههه

فرد زياد مازحًا:.....

رجلي على رجلك، لن تسافر قبلي! هههههه

صارت الضحكة تتبع أختها، كأننا في مسرح كوميدي

علنـي، العبـارات تنطلـق بعفويـة خالصـة، دون تخطـيط، مـن الجميـع. اسـتمرت تلـك الأجـواء سـاعة كاملـة، جلـت الهـم مـن صدورنا، كانت رياضة صباحية نشّطت القلب.

حينهـا أمسـكت بمقـبض حقيبتـه لأعيـدها إلـى غرفتـي، وقلـت له:

اِصْـبِرْ عَلَـى مَضَـضِ الحَسُـود، فـإنَّ صَـبْرَكَ قَاتِلُـه، هههههههههه... سـأحتفظ بحقيبتـك حتـى موعـد سـفرك القـادم، وعسـى أن تكرهـوا شـيئًا وهـو خيـر لكـم، فـلا تبـالِ، ربمـا أراد الله لك خيرًا، فقط ابتعد عن حدود زياد! هههههههه

شـكرني، والألـم يعتصـر وجهـه رغـم ابتسـامته المجاملـة، ولـم يتقطر منه إلا صمت رهيب.

وأخيرًا، تأجلت الرحلة إلى موعد قادم.

لكـن هـمّ الأسـتاذ فـالح لـم يكـن فـي تأجيـل السـفر فحسـب، بـل فـي فقـدان جـواز السـفر. فـإجراءات اسـتخراج بـدل ضـائع طويلـة، قـد تتجـاوز سـتة أشـهر، وتتطلـب نشـر إعـلان فـي الصـحف، وجهـدًا ومصـاريف إضـافية، قبـل أن يُسـمح لـه بمراجعة السفارة.

كـان متأكـدًا مـن نسـيانه الجـواز داخـل عجلـة التاكسـي، حـين وضـعه علـى "الدشـبول" وهـو يـدفع الأجـرة، فرحتـه بالسـفر واسـتعجاله أربكـاه، ولعنـة زيـاد لاحقتـه، أراد الهـرب منـه فتعثـر به.

تكمـن مشـكلة فـالح فـي أنـه لا يعـرف رقـم عجلـة التاكسـي التـي أوصـلته، ممـا جعلـه يعـيش قلقًـا مضـاعفًا. فقـد يكـون سـائق التاكسـي مـن أولئـك الـذين لا يبـالون، أو ربمـا جـاهلًا لا يـدرك أهميـة الجـواز، أو سـاهيًا لـم ينتبـه لـه، فيضـيع الجـواز وتضـيع معـه أحلامـه. وقـد يكـون طيـب القلـب، يبحـث عـن صـاحبه، أو خبيثًـا لعوبًـا ينـوي بيعـه والاسـتفادة منـه... كـل الاحتمـالات

واردة.
لـذا، سـاعدته بالصـبر والتـأني، واقترحـت عليـه أن يـذهب إلـى السـفارة العراقيـة ليستفسـر قبـل اتخـاذ أي إجـراء، حتـى لا تتعقـد الأمـور وتلتـف خيـوط الشـبكة حـول عنقـه. وإذا لـم يجـده هنـاك، يمكنـه أن يسـأل شـرطة المـرور أو مصـلحة سـيارات الأجرة الخاصة بخط المطار.
قال إياد معقبًا:...
أفـرض لـم يجـد الجـواز فـي السـفارة ولا المـرور سـاعده... ماذا يفعل؟
أجبته مازحًا:....
ينصـب خيمـة عـزاء أمـام السـفارة ويجلـس! هههههههـه.
فعقب زياد:
يحتـاج جماعـة يلطمـون ويـاه، المشـكلة يـأخروه للسـنة القادمة، وعقده منتهي! هههههههه.
وفعـلًا، أخـذ بنصـيحتي وتوجـه إلـى السـفارة، وهنـاك وجـد جواز سفره ينتظره في الاستعلامات، فانفرجت الأزمة.
لكـن المسـكين أصـبح حـديث الشـارع، وزيـاد لـم يرحمـه، جعلـه هـدفًا لسـخريته، وأطلـق عليـه سـهامه بقـوة البعـد الثالـث الكامنة في عينيه.
مـرت الأيـام، وأُدرج اسـم الأسـتاذ فـالح ضـمن الوجبـة الجديـدة المعـدة للسـفر، رأفـةً بمـا أصـابه مـن صـدمة نفسـية. تـم إبلاغـه بموعـد الرحلـة: ليلـة الأربعـاء السـاعة العاشـرة مسـاءً، حيث كانت الرحلات تُسيّر يومي السبت والأربعاء.
فـي مسـاء الأربعـاء، وبعـد جولتنـا فـي شـوارع صـنعاء، خاصـة شـارع جمـال وبـاب الـيمن، عـدنا متـأخرين. طـرق فـالح بـاب غرفتـي ليأخـذ حقيبتـه اسـتعدادًا للسـفر. بـدا وكأنـه يريـد الـتملص مـن أنظـار زيـاد، لكننـا كنـا نعـرف موعـد رحلتـه مـن

قائمة الأسماء المعروضة على جدران وزارة التربية، فودعناه بشكل عادي، متمنين له سلامة الوصول.

في فجر اليوم التالي، ومع زقزقة العصافير النادرة بسبب ارتفاع صنعاء عن سطح البحر، جلست على صوت قهقهة زياد العالية. فتحت الباب وسألته:...

خير يا زياد... ما بك؟ لماذا تضحك؟ قال بصوت مبحوح، والدمع يترقرق في عينيه، مشيرًا إلى السلم:...

أنظر... فالح نائم تحت الدرج!!

ضحكت لا إراديًا، وانفجرت القهقهات. فتح إياد باب غرفته، مرتديًا لباسه البكيني المعتاد، وما إن رأى فالح حتى غص بضحكة نادرة، يهتز ويرتعش كمن صُدم بالكهرباء. استند إلى الجدار، وكرشه يهتز كطشت ماء، كاد يختنق من شدة الضحك. جلسنا على الأرض، مفترشينها، ممددين الأرجل، نضحك حتى فرغنا من الطاقة.

بعد أن هدأت العاصفة، توجهنا إلى فالح نستفسر عن سبب وجوده. من الطبيعي أنه لم ينم تلك الليلة، فقد جهز نفسه للسفر، وذهب إلى المطار قبل الموعد بساعتين، وانتظر بعد الإقلاع يناقش مصيره. لكن المشكلة الجديدة لم تكن الجواز، بل صفعة أخرى فاقت التوقعات.

عيناه واجفتان، حائرتان، يتقلب في فراشه كأصحاب الكهف، دون أن ترقد عينه لحظة واحدة. الصدمة كانت أكبر من أن تُحتمل، ولا يملك عصا موسى لتغيير مجرى الأحداث.

لقد آمن بالله، وبالنصيب، وبقلة الحظ، لكنه لم يؤمن بعقدة السفر التي لازمته كظلٍ لا يفارقه. تعمقت في ذاته عقدة الحسد، وجعلت من صبره فيضًا لا ينضب. في المرة الأولى، ظن أن تخلفه عن السفر كان نتيجة خطأ ارتكبه بنفسه، لكن حين تكررت الحادثة، تيقن أن للحسد يدًا في منعه، وأن ما

حدث لم يكن صدفة ولا عبثًا، بل عين زياد تلاعبت بنصيب الفرصة، أحرقت جدول خططه، وألقته في دوامة من الهم والتخبط، دون أن يرفق به الحظ.

لم تسلم محاولتاه السابقتان، فهل ستنجو الثالثة؟ وهل تمنحه اللجنة المنظمة فرصة أخرى؟

سألناه بشغف: –

بالله يا أستاذ فالح، ماذا حصل في المرة الثانية؟ ولماذا نائم هنا؟....

أجابنا منهكًا، يكاد الدمع يتفجر من عينيه، والحزن يقطر من غضبه: –

كنت واقفًا في طابور المسافرين، ننتظر دخول الطائرة، فجأة حضر وفد رئاسي يمني متجه إلى الأردن لأمر طارئ، فحجزوا آخر 25 مقعدًا، وتأجلت رحلتنا، وكنت من بينهم...

حينها انفجرت ضحكاتنا، هههههههه، خرجت من أعماقنا كأنها بلونة انفجرت في وجه الدراما، واندفعنا نحو الهزل والسخرية دون إرادة. بعد المحاولتين الفاشلتين، كنا قد رفعنا الكلفة، واندمجنا كأننا أصدقاء منذ زمن.

ضحكنا حتى سكرنا من المرح، سكارى وما هم بسكارى، ولكن الظرف جنى على فالح، فصار كل منا يجر نفسه نحو الاتزان دون جدوى. نسجنا النكات والقصص دون أن نراعي الحزن الموشح في وجهه، فالغربة قاتلة إن لم تدعسها بالضحك تقتلك.

قلت له مازحًا: –

يا أستاذ فالح، لقد قصرت في دفع البلاء، كان عليك إخراج كفارة العين الحاسدة... الحسد يلازم صاحبه أربعين يومًا، وأنت لم تكمل أسبوعًا! يبدو أنك ستخيس في صنعاء حتى نهاية العطلة. هههههههه.

ضحك معنا ضحكته الباردة، ونظر إلى زياد بعين شزراء: –

الله يستر يا زياد، اتركني بحالي، أرحمني يرحمك الله... هههههههه.

فرد زياد: –

كم تدفع لي لأكف عنك وأدعك تسافر؟ هههههه.

أجابه إياد: –

ما يكفي إطعام 60 مسكينًا حسب الشرع. هههه.

فقال زياد ساخرًا: –

دعه يطعم نفسه أولًا! هههههه.

ضحكنا حتى خارت قوانا، وسجلنا يومًا لا يُنسى في سفر العمر. جلسنا نفطر معًا، نتداول القصص، نحاول فك عقدة فالح، ونتنبأ بما سيحدث في الرحلة القادمة.

قال إياد: –

أكيد هناك تأجيل آخر ينتظره. هههههه.

فرد فالح: –

فأل الله ولا فألك، ألا يكفي ما جرى؟

قلت: –

بمَ تفكر يا إياد؟

قال: – لازلنا في الأسبوع الأول من الحسد، وأكيد هناك مفاجأة أخرى! ماذا تقول يا زياد؟

قال زياد: – بعد أن شهرته في اليمن، سأشهره في الوطن العربي والعالم، ليدخل موسوعة جينيس! هههههه.

قلت لفالح: –

دعني ألتقط صورة تذكارية معك، فإذا اشتهرت، سأشتهر معك! الصحافة ستهتم بنا كأصدقاء المشاهير. هههههه.

قال إياد: –

رأيي أننا جميعًا سندخل موسوعة جينيس، هناك جائزة من شركة الطيران لمن يتأخر ثلاث مرات دون إرادته، سأجرح نفسي وأشكيه للشرطة ليلة السفر، ونقتسم الجائزة اربعتنا. هههههه.

قلت له: –

بايخة يا إياد، سيعتقلونه لأنه يدخل المطار يوميًا دون أن يسافر. هههههه.

قال فالح: –

أعوذ بالله من أفكاركم السوداء. هههههه.

قال زياد: –

لا هذا ولا ذاك، سيضرب المطار زلزال يمنع إقلاع الطائرات إلى أجل غير مسمى. هههههه.

رد فالح بامتعاض: –

دخيلك يا زياد، كلامك سم، أخاف من توقعاتك، ومن عينك ولسانك. هههههه.

قلت له: – لا تهتم يا فالح، هذه المرة سيدعو لك بسلامة الوصول.

قال زياد: –

هههههه، لا والله، لن أدعه يسافر قبلي، رجلي على رجله. هههههه.

كان فصلًا ممتعًا، نشّط الدورة الدموية، وكسر رتابة الأيام، وترك في القلب ذكرى لا تُنسى.

\\\\\\\\

حقيقة ما جرى للأستاذ فالح فاق حدود الخيال، لا يُصدق، بل كأننا بتنا نرى بأم أعيننا أحداثًا من نسج الأساطير، تصب في جحره دون رحمة، لم تخطر لنا على بال. لقد جرّه الحسد إلى عالم التحنيط، فأضحى في واقعه كمومياء ممددة تحت

السلم، مكبّل بالبؤس والكآبة.

مضت الأيام متسارعة، ونحن نستذكر الموقف، نؤلف القصص والطرائف حوله، حتى صار موضوع سفره الشغل الشاغل لحديث الشارع. قصة نادرة، طريفة، مستحيلة التكرار، لا تجد لها مثيلًا حتى في أغرب حكايات الخيال، ولا في "ألف ليلة وليلة". واقع مؤلم، نكد متتابع، وتسلسل أحداث يجعل لها نكهة أشبه بالأكل الهندي الملون، من بهارات وكركم وزعفران وفلفل وبصل، نكهة حارة لاذعة، وكأن القصة لم تنتهِ بعد، بل لها بقية، وقائع أخرى لا تقل مفاجأة عما سبق. صرنا ننتظر نهاية قصة فالح بشغف، نترقب ما ستسفر عنه الأيام القادمة.

فالأقدار أحيانًا ترسم لنا مسارات الحياة، وأحيانًا تلازمنا بعسرٍ هميم، تلف حبال اليأس والعقد حول الأعناق. فالمسكين فالح، لم يخطُ خطوة إلا والعسر يكبّل ساقيه.

أما نحن، فلم نصدق ما حدث، تشبثنا بالعقد، ونشرنا الوقائع على نطاق واسع بين معارفنا في صنعاء، وهم بدورهم تداولوا الخبر كما تفعل العجائز النمّامات. طرقنا قصته في مقاهي المدينة من باب الفكاهة لا التشهير، تلك المقاهي التي تُعد ملتقى للأغراب والمدرسين، ومرفأً لتداول الأخبار الطازجة.

كنا ننتظر دوره، وبتنا نترقب اسمه في قائمة المسافرين على جدار مديرية التربية. كلنا في شوق لمعرفة مصيره في الرحلة القادمة. هل ستتجدد المغامرة؟ هل سينجو من عين زياد التي أقسم ألا يدعه يسافر قبله؟ كنا ننتظر الموقف القادم بشغف.

وحين نُشرت أسماء الوجبة الجديدة للرحلة، وجدت اسمي

إلى جانب اسم الأستاذ فالح ضمن القائمة المصرّح لها بالسفر. إدراج اسمه جاء بأمر من إدارة المطار، بعد أن اشتهر بين الملأ بسوء الطالع.

تحدد موعد السفر في تمام الخامسة مساءً من يوم السبت، غير أن الرحلة تأخرت كثيرًا، ولم تُقلع الطائرة إلا عند الخامسة صباحًا من اليوم التالي. بقينا ننتظر اثنتي عشرة ساعة كاملة، حيث شُحنت الطائرة في تلك الليلة بأطنان من السمك إلى الأردن.

كنت واقفًا وسط طابور طويل، فيما كان الأستاذ فالح يقف خلفي، متذيّلًا الطابور. أميّزه من بعيد، بطوله الفارع، وسمرة بشرته البرونزية. سألت نفسي وأنا أنظر إليه: لماذا لا يخالف تسلسل الطابور؟ ألا يتّعظ مما جرى له في الرحلات السابقة؟

لكنه لا يستطيع مخالفة القواعد، لأدبه، لورعه، لأخلاقه العالية. لن يتجرأ على تجاوز النظام، فالتربية والوازع الديني يمنعانه من ارتكاب الخطأ. إنه محصّن بتقاليد وأعراف ومبادئ قبلية جليلة.

صعدت إلى الطائرة، من نوع بوينغ 737، وجلست في الجزء الأمامي حسب رقم تذكرتي. كنت حريصًا على تتبع الداخلين، أبحث عن الأستاذ فالح... أغلق باب الطائرة ولم ألحظ صعوده. انتابني ريبٌ من حجزه مرة أخرى، فصرت ألوم زياد على عينه الحاسدة، تلك التي تنطق بما تفيض به نفسه المريضة، وكأنها لا تشعر إلا بالنقص تجاه الآخرين.

صرت أتساءل عن تأثير "البُعد الثالث" في لغز العين؟ وبعد المناظرة والتفسير، وتكرار تأجيل رحلة فالح الدراماتيكية، تيقنت تمامًا من شر عين الحسود. "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ... وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ"

بتّ أُحادث نفسي وأجيبها: كيف ستكون حالته النفسية حين

يُبلّـغ بتأجيـل رحلتـه الثالثـة؟ أكيـد سـينهار، فقـد تجـاوز مرحلـة الصـدمة والتكـرار، ودخـل مرحلـة العـذاب النفسـي. حالتـه مجروحـة، لا تُـرمم، بعـد مـا لحـق بـه مـن تـأجيلات متكـررة، تلـك التـي جزلـت شـوقه للسـفر. كيـف سـيتخطى أزمتـه الجديـدة؟ صرت أفكر بحظه العاثر، والنحس الذي لازمه.

علـى أيـة حـال، وصـلت الـديار، ووصـل مـن بعـدي بأسـبوع كـل مـن زيـاد وإيـاد. وقـد حـدّثني زيـاد عـن حجـز الأسـتاذ فـالح، وثلاثـين آخـرين، بسـبب شـحنة الأسـماك الكبيـرة المصـدّرة للأردن، لينتظر رحلته الرابعة...

قال زياد وهو يصف حالته: –

لقـد انهـار نفسـيًا، صـار عصـبي المـزاج، لـم نسـتطع أن نقـيم حفلـة ضـحك بوجـوده. أصـابه يـأس شـديد، وقـرر أن تكـون محاولتـه القادمـة هـي الأخيـرة، وإن تعسّـرت، سـيعزف عـن السفر نهائيًـا. صـار يتجنبنـي، يتهـرب مـن لقـائي، زعـل منـي ولـم يعد يتحدث معي، فترت العلاقة بيننا.

لكنّـه أخيـرًا نجـح فـي تخطـي فشـله فـي الرحلـة الرابعـة، برفقـة زياد وإياد، كما قال له زياد :...

لن أسمح لك بالسفر قبلي، رجلي على رجلك.

وبعد عناء وضيم، فكّ قيده، وبطلت تلك العين الحاسدة.

## 10- مدن دافئة

مع بزوغ شمس يوم جديد وهي تفرش بساط حنينها على أديم الأرض، اجتاحت هواجسي أطياف شتى برفقة ذلك العبق المندح من ثغر الزهور البهيجة، وهي ترشق موجات الكرى الرائبة في أجفاني بنفحة من ضوعها الزاكي. الحالة اشتطت خاطري عن سيل الأرق، أضفت على شاطئ الذهن ملأة سعادة، غزلتها من وحي الصبح البشوش.

نهضت مُتَثَائِباً، العياء غز أوصالي، جزل رونقي وزهوي مخامرا المقل. وأنا ناهض أهجس بذاتي عربة تجر خلفها جسد أجدبٍ مثقلٍ بالكسل نحو شرفة الدار، لألقي نظرة على وجه الصبح الجديد مثلما تعودت على اشرك ذاتي في مهرجان الورود البهيجة خلال فصل الربيع.

أعددت نفسي ملاحظا ومستمتعا ومتشوقا لتلك المجاميع من الزهور المسترسلة ألوانها، القابعة تحت ظلال أشجار باسقة، نَضِرةٌ. لأطنب اذنيَّ بزقزقة العصافير وتغاريد البلابل المسرة، لـ أشفق نظري بتنهدات قوس قزح تلك الزنابق المشتعلة بهجة ورواء، وهي تغازل خيوط الشمس المستطيرة.

خلال استرسالي عبر تلك الأجواء المبتهجة، لفتت انتباهي حمامتان يتحاوران في همس كحبيبين! لم أَلْفَاهُما من قبل، تهدلان بشغف وسط الحديقة، في ظل تآزر ملفت للنظر، مجتمعتان على نهر الود، في جذوة تمتد لضفاف الحب والرجاء.

أحدى الحمامتين كانت بيضاء اللون، ذات منقار أحمر صغير كحبة الرز، يكسو قدميها ريش كأجنحة الفراشة، مما يدل على أنها قادمة من بلاد الثلج الباردة. فيما الأخرى كانت

زنجية اللون، ذات منقار أسمر داكن طويل وقدمين أملسين، تعتلي رأسها قلنسوة بيضاء براقة، تحمل في كيانها أوصاف الشمس المحرقة، مما تدل على أنها قادمة من بلاد الشمس الحارة.

أطرقتُ أذنيَّ إليهنَّ مصغيا لما دار بين الحمامتين من حديث عجب، أغدقتْ كلٍ منهنَّ بأسرار قدومها إلى الأخرى، فاستمتعت بقصص خلاف وتناقض شجية، استلذذت بها.....

قالت البيضاء:...

هجرت بلد الثلوج لما فيها من صقيع يروج بين القيم، أدت إلى تجلد المبادئ وعقص النعم، عواصف هوجاء لا تبقي ولا تذر، عجت بـ سُنن الاعراف والشرائع، أستباحت الأمان، زلزلت النفوس، عصفت بالميادين.. لسمة العناء المفتعل، تسلل الفقر لميادين المدن، طاف الأزقة والشوارع، جاش بين عيون الناس، لاك النفوس والأهواء، عسَّ بين الأضواء، دس رعشة الخوف والجنون والهلع بين الضعفاء من طير وبشر، غدا البيت مبهما بلا سطح وبلا سماء.

احتكم الدخلاء واللصوص بمقدرات الشعب، حال ذلك إلى افتعال الأزمات وانتشار الكرب، أودى إلى انحدار في مستوى الحياة، طغى الظلم وتعددت الغايات، أضحتْ الأقدار تراكيب أحجية ونزق، تدار حسب أهواء المتسلطين وثلة من اللصوص والشياطين، لا مستقبل واضح في الأفق ولا أمل زاهر بتحسن الأوضاع. بات الفكر يتأوه في قعر الظن، الشخوص عاجزة عن مساعدة أنفسها مع تراكم المحن، أضحى كل منهم مركون كالحجر المؤذي في قارعة الطريق.

لا كرنفالات ولا طقوس أديان ولا مواسم حب، كأنَّ البلد أضحى صرة منسية، لا أحد يهتم به ولا أحد يجزل عقد دستوره ويرممه. بعثرت أحلام المساكين، غدت شراشير

ذاكرة تلهو بها الريح. حياة جرداء بلا رجاء وصفاء. الشرف مكبول، نض ثوب الحياء. المشاعر متجمدة، الرحمة مهلهلة مقطوعة السبل، نفوس ترتعش تحت ظل سياسة التقتير، دون مقياس واحترام وتقدير. وخوفا من المصير المجهول، هربت من ظلم الفلول.

قالت الزنجية:-...

ربما عندكم الحياة أيسر مما رأيت من قسر ومرار، بلد مركون فوق كوة من نار، مثقل بالغموض وزخم الأسرار. ظلم سائد، وحكم يتراءى للناظر منار.

رغم الخير الوفير، والرزق الميسر ونعومة السرير، والكلأ المفروش في البقاع كالحرير، نعيش عيشة التعساء، حياة مريضة تزحف خلف الرجاء، ودون مورد ورخاء. الأطياف ترتعد في الجفون، البأس طاغ، الحرية مهلهلة، الفكر محجور، النفوس مغشية بجريرة الكأس. الظن السيء مكنون في كل الأمور.

الخوف منتشر كالعشب في الطرق، مبثوث في الأزقة والشوارع، الأحزان عائمة في البقاع. الأفكار طيور مهاجرة، السعادة سراب ظن، بلد يمضي بلا أمن واقتناع، أذا انتقدت تقتاد للسجون، واذا سكت تموت في الديون.

وخوفا من أن يبلعني الإعصار، هجرت الأهل والأخيار.

البيضاء:...

مذلة سلب الحرية لا تداني مذلة الجوع والحرمان، إذا ما سلب الفكر جهرة يمكن ممارسته في الخفاء، بعيدا عن أنظار المغرضين والمنافقين، لكن إذا ما سُلِبَ الروح من الجسد تتوقف الحياة. الجوع وحش مفترس، لن تصمد أمامه المبادئ ولا الضمائر، فقطع الأعناق أهون على المرء من قطع

الأرزاق.... وخوفا من أن يقيدني الزمن في سجن الحرمان، اطلقت لجناحي العنان.

الزنجية:...

الفقر؛ قنطرة صغيرة، يمكن عبورها مع مرور الزمن، البؤس غيوم صيف كذابة، تنقشع مع بزوغ الشمس. لكن؛ ماذا نفعل للمشاعر المهانة، تلك التي لها وقع على صفاء الذهن واستقرار النفوس، أن جرد المخلوق من عقله؛ صار هيكلا بلا سحر، بلا أنوار، كالمصابيح المطفية.

أن جردت الحرية من الذات؛ تتعقد صيغ الحياة، فلا خيرا في روح تشقى في العدم، لذا قررت أن أعيش ملكا بعيدا عن الغل وإذلال القيم.

البيضاء:..

سأقص عليك قصة مما رأيت، تفتقر للشفقة والرأفة:--

كان قد حل بيننا رجل غريب، غريب في طبعه وأخلاقه وكرمه، لكنه عريق في أصله وانتمائه. شده الحنين للوطن بعد غربة طويلة، صرف جل ما يملك على المدينة، كان ميسور الحال، يخلق فرص العمل من المحال، أشترى بيتا مرموقا وسيارة فارهة، ود تشغيل أمواله وذهبه في مشاريع تخدم المجتمع، لذا فرش أحلامه بين أعين الحساد وقليلي الفأل دون أن يعلم بذلك.

في الحقيقة أستقر في ذاته ولم يستقر في فكره. تفقد من يتأمله ولم يتفقد أثر خطوته. ساعد الفقير والضعيف ولم يدرك نزق الأحمق والحاسد والسخيف، أراد خدمة الجميع وأرادوا النكال به وسلب ماله، فهو في نظر اللصوص كنز لن يعوض.

ذات يوم؛ وهو ماض في طريقه لعمله، أقلَّ رجل معتوه في سيارته من باب الرحمة والرأفة والإنسانية إلى حيث

يبغي. هيئة الرجل تُوحي إلى أنه من المساكين، وفي حقيقة الأمر كان يخفي تحت جلده خبث الماجنين، فلا هو معتوه ولا هو مسكين، بل كان لصا مكين من العابثين.

لم تعد للإنسانية جذور في المجتمع، وأن طفحت في وجه شخص تكاد تكون في غير محلها.. أضحى السطو من شعائر الناس، بأفعالهم الخسيسة تجاوزوا حد المعقول، أضحت العقد المنتشرة لا يمكن اجترارها، أضحت ركيزة ثابتة من صلب العادات والتقاليد يفتخر بها... فمن طبع البشر التماس الحاجة والتعاون في مجالات الحياة، غير أن الحياة مضت تجري بما لا تشتهي السفن، على عكس أهواء ورغبات الناس.

على أية حال كان هذا المعتوه بارعا في تمثيل دور المسكين، بحيث تمكن من تمويه وغش الغريب بصورة احترافية، تمكن من أن يغشي بصيرته بحرفية.

أخرج هذا المعتوه رزمة من النقود المزورة متظاهر بالجنون، صار يرمي ورقة تلو اخرى عبر النافذة وهو يضحك ضحكة هستيرية وهو ينظر إلى الغريب نظرة ازدراء، والغريب ينظر اليه بعين الرأفة والشفقة، محاولا ثنيه عن سلوكه المشين دون جدوى.

تمادى المعتوه برمي النقود مع سير العجلة، مرة تلو المرة صار يزيد من قيمة النقود المرمية، بدلا من رمي ورقة ورقة، صار يرمي ثلاثة أوراف أو خمسة وريقات برمية واحدة. صار يزيد من قهقهته المزرية الكاذبة، حتى تمكن من أن يستحوذ على مشاعر صاحبه، أدرك حدود طيبته التي أعمت بصيرته، هجس بالشقاء يطغي على ملامح وجهه، فامتلأت مآقيه بدموع الأسى.

في تلك اللحظة رمى المعتوه الرزمة كاملة، لم يستطع الرجل الطيب من أن يتغاضى عما يجري، لم يستطع أن

يتحمل وزر هذا المعتوه، عصفت به مشاعر جياشة، حينها أوقف عجلته ليجلب رزمة النقود المرمية وهو لا يدري أنها مزورة.

صارت المسافة بينه وبين الرزمة تزيد عن50 مترا، وما أن ترجل من سيارته ليعيد رزمة النقود؛ حتى حلَّ المعتوه محله، ثم أنطلق بسيارته بأقصى سرعة إلى جهة مجهولة تاركا الرجل الطيب يعاني في وسط الطريق يستنجد بصمته وحيرته وهو في ذهول وصدمة - عيناه تتبع أثر عجلته المسروقة وهي تنزوي بين منعطفات الطريق حتى تلاشت من خياله.

خارت قواه الجسدية والنفسية، احترقت أحلامه الفتية. كانت وقع الصدمة عليه شديدة، أوهنت قواه، تقطعت به السبل، تبخرت أحلامه، أصبح يعيش في سكرة وذهول.

كان يمشي خلف أوهام، في مسلك لا يعرف له مخرج، متكأ على عصا أفكاره الهشة، تلك التي لا تقاوم وقع الصدمات. أنها بداية المشوار، بدأت الآمال تزحف لحتفها، أرادها تبهج حضوره، فجنى ثمرة ضعف خياله.

أسدت ظنونه الموبوءة إلى حرج لم يكن في الحسبان، وجرح لن يندمل إلا بالعثور على سيارته...

في خاطره استحضر حساباته قبل أوانها، أسرف كثيرا في غيه دون أن يعلم، السلطات لا تعنيها الأمان، الرشوة سائدة، الفصل خريف دائم. السرقة وظيفة يعمل بها الكثير.

بعد ليلتين رنَّ هاتفه، أخبروه عن مكان تواجد سيارته، كان المخبر فاعل خير.

حزم أمره، تفاءل خيرا، توقع أن الأمر يسير. تأمل بزوغ القمر في ظلمة ليله. غار في عمق المجهول بحثا عن عجلته، تشتت خطوط ظنونه، بات يدور في دوامة التيه دون ان

يدرك نهايات تأملاته وجمع شتات أفكاره ليتدارك نفسه.

بعد أن جد في بحثه؛ عاد مثقلا بالهموم، خائبا، منزويا في جحر أحزانه، كان قد أمضى يوما شاقا من العناء دون جدوى.

خلال عودته للبيت فوجئ بسرقة أثاث بيته عن بكرة أبيه، تفاقمت أحزانه، استسلمت أوهامه لجحافل يقظته، لقد تحول قصره لكوخ أشباح.

بعد أن ذاق الويل، عزم على العودة من حيث اتى.

الزنجية:...

ما شاهدت وسمعت من قصص، أشنع وأقبح مما رويتِ. عرفت رجلا متزنا في سلوكه، يصغي له الجميع لوقاره وحلمه وتقواه ورزانة عقله. يجير الضعفاء، يرشد الأقوياء، يشارك المساكين والفقراء الاحزان والمسرات، عرف سرائرهم، وثق بهم ووثقوا به، كان يعمل في الخفاء بعيدا عن أعوان الحكم الجائر.

لم يكن من الأغنياء، لكن كان فقيها من المزارعين، يبذر سحره بين الحشود، ثم يتأمل جني ذلك السحر. صار في نظر الجميع صومعة يئم إليه الناس. صار لحنا يطرب الأصوات، مع مرور الزمن صار سيفا بين العصي، الكل يقلده ويرنوا غمده.

لكن الحسد حين يتفشى في المجتمع، يكون تأثيره كالنار في الهشيم، الأفكار السيئة تأكل الحسنة. وشى به أحد الفاسدين إلى الحاكم الظالم، فأستدعيَّ للبلاط بحجة تطاوله على الحاكم. أتهم بالخيانة ومحاولة إسقاط الحكم، أودع السجن، كاد الحاكم يحكم عليه بالإعدام لولا إشارة مستشاره عليه، أقترح بأن تكون له فرصة الدفاع عن نفسه، كي لا

يشاع بين الرعية بظلم الحكم.
لإخماد فتنة الشعب؛ أخذ الحاكم بنصيحة مستشاره قائلا له:.....
مثلما تدخلت في ما لا يعنيك ستلقى ما لا يرضيك، تصرفاتك وأعمالك الغير مسؤولة جارت عليك بما لا تشتهي نفسك.. لن تستطيع أن تمخر عباب البحر دون أذن مني، وإلا سيجرفك التيار سريعا إلى الهاوية..
حينها سلمه خروفا ضامر البطن خائر القوى، لكنه بصحة جيدة. خصص له في اليوم الواحد من العلف والشعير ما يكفي لثلاثة خرفان.
طلب منه أن يعيد الخروف اليه بعد مرور شهر من تاريخ استلامه، على أن لا يزيد وزنه حبة خردل، وإلا سيكون مصيره مرهون بحد السف.
أراد الحاكم أن يوصد على الحكيم باب النجاة، أن يمحيه مثلما تمحو الريح معالم السابلة من كثبان الرمل؛ وبذلك يكون قد تخلص من عصا حكمته التي عبثت برماد الجمر إلى الأبد.
في المقابل كان الحكيم قد أدرك نوايا الحاكم، لذا ظل ملتزم بالصمت، محاولا أن يستنبط فكرة من ما يحاك ضده، ليجعلها سُلَّما لحياته، وليعيد سهم الحاكم إلى صدره.
لم يجد مناص من قبول الحكم، تاركا مصيره بيد الله.
صار الحراس يأتون له بالمؤن ولن يغادروا سجنه إلا بعد أن ينفد العلف من أمام الخروف الجائع، هكذا دواليك مرت الأيام ومضى الشهر دون أن يزد وزن الخروف حبة خردل.
تعجب الناس والحراس، بان الاستغراب على الوجوه، صاروا يغزلون حوله قصص خرافية، هناك من يقول أنه من المَلَك بهيئة بشر، وهناك من يقول أنه ساحر، وهناك من يقول لعدالة السماء دخل في ثبات وزن الخروف.... اااالخ، والكثير

من الحكايات نسجوها من الخيال بينهم على فطرتهم.

مثلما استغرب الناس، أصابت شظايا حكمته مواجع الحاكم المغرور، أستغرق في حيرته، تمادى في غضبه، دعاه أمام الملأ لتفسير غرابة الأمر.

أخيرا نجا من كيد الظلم بحكمته ونباهته، حيث كان يربط ذئبا كاسرا جائعا أمام الخروف في أثناء الليل، فيدب الرعب في أوصال الخروف، فيبقى ساهدا، مرعوبا، موهن القوى، ينتظر أجله، فيسحن كل ما يأكل نهارا حتى يشعر بالجوع مرة أخرى ليزداد شراهة ونهما.

كان قد أستنبط أفكاره من وحي الطبيعة، قدمها كتجربة على طبق من ذهب للحاكم الضرير. على أثر ذلك تم نفيه لجزيرة نائية، لكنه ترك أثراً بليغا في المجتمع الفقير، بحيث صار الجميع يتبع أثره.

كنا نعيش عيشة الخروف! ناكل ولا نسمن، نعيش ولا نتأمل، نكره ولا نحب، نحلم ولا نتجرأ. نتستر بالخوف، أصبحت الحياة تلسعنا كلما نود تذوق العسل، فيدب الألم في أوصالنا، فلا نستطيع أن نتحسس ظل أحلامنا وطيب خواطرنا.

شهقت البيضاء ثم قالت:...

حسبنا الله ونعم الوكيل، ذاك هرب وذاك نفي، والأثنان شاقهما بلاء الوطن، إذا حسنا فعلنا في تبديل ثيابنا، لا بد من تغيير نمط العيش كي ننتشي بلذة الحياة، لا بد من حركة تغنينا بالأمل. نحن ألآن نلتمس جزء مما كنا نحلم به في ربوع هذا البلد الدافئ، النخل باسق والثمار طازجة، والمدن عامرة، والأمان سائد. كل شيء سهل المنال، والحياة مستقرة، هانئة، هادئة.

جمعتنا الإرادة بغير ميعاد، برفقتكِ سأعشق الحياة.

رفرفت البيضاء فرحة جذلى محلقة في أفق السماء، تبعتها الحمامة الزنجية بامتنان وحب وهيام، عندها حمدت الله على نعمة هذا البلد الدافئ.

## 11- صراط القلوب

منذ نعومة أظافره تربى على مبدأ العفة والفضيلة ونكران الذات، حتى أصبحت تلك السمات الرقيقة في حسها وبنيانها ركائز شخصيته. أدبه القرآن قبل أن يؤدبه أبوه والمدرسة، من خلالِهِ التمس ثروة الحِكَمْ والعِبَرْ، أكتنز منه ما شاء، غرف من بحره ما لذ وطاب، رفد فكره بالأسس والقواعد، وجد به منهل لا ينضب، به رس عقله وثبت القلب.

منذ صغره كان قد حفظ أجزاء كاملة منه، تعلم أصول الفقه والتوحيد والسنة المحمدية، في تكوينه الشخصي غدا نابغا يقارع الجهل والجهلاء.

في خطواته المرحلية كان يعد ذاته بمثابة فارس همام، حقق حلم أبيه، أضحى مثاليا في حسن الأدب والسلوك والتصرف والتعامل مثلما تمنى والده وزيادة.

كان أبوه قد حرص على غرس مبادئ التربية الصحيحة في ذهن ولده منذ الصغر، بذر في ذاته المثل والقيم الرفيعة، لتضفي عليه مراتب الكمال والثقة بالنفس. تلك المُثلُ كانت له بمثابة طاقة ثابتة ترفد شخصه، قناديل نيرة تسطع ذهنه، تبرز هيبته في مجتمعه.

لوالده الفضل الكبير في غرس تلك البذور من فتنة الذات، والتي لها الأثر الواضح في تميزه بصفة الإيثار والوجاهة والعفة. أنصبت جل اهتماماته بتركيزه على مجال التربية الإيمانية، والخلقية، والعقلية، والبدنية والنفسية، كما أهتم بالجانب الاجتماعي والوطني، ليصونه من المخاطر الخارجية والداخلية وانزلاقاتها.

كان يدرك بأن الطفل هو نتاج أبوه.. أي بمعنى آخر؛ صور الأبن هي نسخة طبق الأصل من أخلاق وأدب والده

أمام المجتمع، مع رتوش إضافية تلمع حدود الشخصية في مجال حياته.

كان قد أوصاه بالتقوى وحسن الأدب والمآب، فقال له كقول العالم الجليل الصالح **رويم** لابنه في بداية نشأته، حيث قال له: [ **يا بني أجعل عملك ملحاً، وأدبك دقيقاً** ].

أي استكثر من الأدب حتى تكون نسبته قياسا إلى العمل كنسبة الدقيق إلى الملح في خلطة عجينة الخبز. كثير من الأدب مع قليل من العمل الصالح، خير من كثرة العمل مع قلة الأدب.

أراده أن يكون مثاليا في سلوكه ليفتخر به، فتحقق له ما أراد وما ظن به، تربى على ديدنه مبتعدا عن الكذب والغش والتصنع والإباحية والتبذير، أشبع ذهنه بخصال المكرمين من الأولياء والصحابة، محصنا فكره بأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وبكم هائل من العبر والقصص المستقاة من وحي القرآن والتراث، لتكن بين يديه أسلحة يتفادى بها مهاوي الخطأ، وما إلى ذلك من أمور الدنيا المفاجئة التي حتما ستعتري طريقه...

على سبيل المثال لا الحصر، كلما أراد أن يكذب ولو كانت كذبة بيضاء، تذكر قصة عالمٍ جليلٍ للاحاديث الشريفة، حين أنتقل من مدينة الرسول (صلَّ الله عليه وسلم) إلى البصرة ليأخذ حديثاً عن رجل سمع بأنه قد سمعه عن رسول الله ﷺ... وبعد أن قطع تلك المسافة الطويلة لإيام ولياٍل جاهدا بروحه وحصانه وفي نفسه عزم وإصرار على الوصول لمأربه، وصل غايته، وحين دنى من غايته رأى الرجل يوهم فرسه الجائعة بأن في ثوبه طعامٌ حتى أقبلت عليه الفرس لاهثة.... حين رآه يكذب على فرسه؛ عاد من حيث أتى دون أن يسأله السؤال! فقال مع نفسه:..

والذي بيده الملك، من يكذب على فرس بريئة، ليس أميناً على حفظ حديث الرسول صلَّ الله عليه وسلم.

المهم أكمل محمد دراسته الثانوية ومن ثم تقدم لأحدى الجامعات الأمريكية على غرار صديقه عادل الذي سبقه إليها قبل سنتين، مشجعا إياه على الالتحاق به.

تم قبوله كطالب في قسم كلية الهندسة المعمارية، ليبدأ مشوار حياة جديدة وغريبة بأسلوبها وسلوكها وفكرها ورواقها...الخ. أراد بذلك تحقيق رغبته بدراسة جادة وبعلم يقين، يتوافق مع ميوله ليخدم نفسه ووطنه، إضافة لاختلاطه الذي سيكسبه مهارة في الثقافة والاطلاع والخوض في عمق اللغة الإنجليزية.

كما أنه أراد أن يخرج عن روتين الحياة، ويتعرف على معالم العالم الخارجي، الذي هو أشبه باللغز المحير بالنسبة له، فمعلوماته محصورة على ضوء الخبر الذي كان يتلقاه عبر شاشة التلفاز والصحف اليومية. ومن الطبيعي الدراسة في الجامعات تكون مختلطة بين الشباب والشابات، ومن الطبيعي أن تحدث عملية الاختلاط الأكيدة بين الجنسين.

كان محمد بطبيعته وتربيته يتجنب مسألة الاختلاط وما شابه ذلك من هذه الأمور، دائما ما يحاول أن يضع نفسه في قالبٍ خاص به، إطار يميزه عن أقرانه، يجنبه الانحراف، محيطا ذاته بسياج من العزلة، يحجبه عن مخالطة الجنس اللطيف، ليتجنب الهفوات والرعنات التي قد لا يسيطر بها على سلوكه وقد تزيحه عن خط هدفه بنيل شهادة تفوق علمية.

كان قد تجنب مصاحبة الفتيات بشكل عام في إطار الجامعة وخارجها؛ تجنب حتى اللاتي يصادفنّه في الطرق، يغض الطرف عنهن، لا يجالسهن، نادرا ما يكلمهن، يتجنب

مناقشاتهن إلا ما ندر في ما يخص أمور الدراسة إلا إذا تطلبت الحاجة؛ حتى لقب من قبل زملائه بالتلميذ المعقد أو المتخلف.

لم يبالي لتعليقاتهم إطلاقا، ثقته بنفسه حصنته من الخطأ، كان هادئا، ذكيا، متمكنا في دراسته، متمكنا من اللغة والعلم، شغل فكره بمواد الدراسة، تمعن بشتى الأفِكار، غار بحل ألغازها العلمية بتمكن.

أدرك أستاذه حدود شخصيته، فكال له الاحترام والتقدير المبجل في نفسه. كل المجتمعات لها تقاليدها الخاصة بها، كثيرة المرات اللاتي حاولن بها زميلاته من التقرب منه دون أن يفلحن، حتى يئسنَّ منه، لم يكن يصغي إلا لباطن عقله، تلك الدائرة الكهربائية المشبعة بمغناطيسية الأحاديث والقصص والعبر والآيات القرآنية التي حفظها عن ظهر قلب.

قبل تخرجه من الجامعة بسنة؛ أغرم صديقه عادل بفتاة أمريكية شقراء، كان قد أقتنع بها تماما وأصر على الزواج منها، لكنه أصطدم بحاجز الأب الذي لم تروقه الفكرة إطلاقا.

حاول مرارا وتكرارا إقناع أبيه دون جدوى، كأنه أرتطم بجدار صلب، لم تفلح محاولاته بإقناع والده قط.. الحكمة من وجهة نظر أبيه تقول: أنه أبن عادات وتقاليد لا تتطابق مع تلك العادات والتقاليد الغربية، إضافة لاختلاف التربية والدين، وهيَّ مسائل جوهرية صعب التوافق بينها.

تلك الأسباب جعلت العقدة تتكور بين أعمدة الشواهد، تلك التي وضعت هذه الزيجة في زاوية ضيقة يحيط بها الفشل. في ظن أبيه أنه سيفتقد أبنه نهائيا إذا ما تم زواجه، وقد يتطبع بعادات الغرب وسلوكياتهم فينسى أدبه ودينه، ينسى أصله وجذوره، فيضيع في وسط المعية كإبرة في كومة قش.

هذا ما سطا على فكره وما لا يريده لأبنه، ولا يرضاه عن نفسه... كان يتأمل لأبنه زوجة من بنات جلدته من الفلوجة، على الأقل تشبهه في الذات والعادات والسلوك والتقاليد والدين واللغة، فتختفي الفوارق بينهما.

لكنَّ عادل لشغفه وهيامه بجمالها تمسك بقراره، عطّل دائرة فكره، الحب أعماه، سلب إرادته، صيره لعبة بين أيادي القدر، الأجواء دحدحته بين أمواج الظرف الجديد، لم يصغي إلا لعقله الباطني، الذي جرده عن أصل واقعه، ليسكن خيمة شغفه هائما بها وحيد الفكر، حيث القلب وما هوى....

لقد تعلق بفتاة أحلامه تعلق الروح بالجسد، لم تغفل عيناه عن شبح خيالها قط، تلك التي غص بها دون حكمة، وولج بها في رؤاه وأحلامه، تعلق بها تعلق النغمة بالوتر لحسنها وجاذبيتها.

أينما تذهب؛ يتبع خطها، وأينما تحل، يحل كقدر بين يديها، لرقتها وسحرها وجاذبيتها وطيب حواراتها في جميع المجالات على قدر ما يسع عقله.

بعد أن تيقن من شعورها المتبادل رضخ لتأملات أحلامه التي رسمت له أقداره، هام في تلك الوردة الشفافة التي شغلت فكره وشغفت قلبه بسحرها وجاذبيتها وعبق فتنتها....

بنفس الوقت كان قد تمسك برضا الوالدين، لن يستطع أن يحيد عن سراط تربيته، أو يغفل عن رغبة والده، فهو ينظر له بعين الاعتبار، لا يريد أن يفسد حلمه الذي راوده طويلا، ليفتخر به أمام أصدقائه ومجتمعه، لقد قدم له الغالي والنفيس، صرف عليه جل عمره في تعليمه وتهذيبه، لم يبخل عليه يوما قط، لم يقف عارضا أمام رغباته قط.

ولكن هذه الحالة تختلف، فهي وجدتْ حدا فاصلا بين رغبات النفس وأمنيات الأب. لن يستطيع أن يتنازل عن

رغبات قلبه، في الوقت الذي به لن يستطيع أن يتجاوز والده ويبغضه.

كانت محاولاته كمن يتسلق جبلا شاهقا، ففي كل مرة يخفق في تجسيد محاولاته بالنجاح، لم يستطع أن يلين عقل والده، ليصل مبتغاه في تلك القمة الشاهقة، التي تتلألأ فوقها كنجمة ساطعة، ولا أن يتنازل عن قدره.

الرفض القاطع كان حاضرا من قبل الأب، مما جعله يعيش صراعا متعبا مع النفس. تلك الأجواء نقلته لحالة أنشداه البال، وقلة التركيز. الهموم عصف بمشاعره، أحالته لركام تذره الرياح، حتى كاد يختنق من دخان العطب المتقد في صدره.

الكلمات الأخيرة الرنانة التي نطق بها أبوه بقيت ترن في أذنيه كجرس الشاة.... **"إن تزوجتها فأنت لست أبني"!....**

شكا ذلك مرارا لصديقه محمد، فلم يجد من يصغي له ويسعفه ويرشده في ديار الغربة سواه، ترى إلى أين المسير؟ الغربة كورته أمامه ككومة قش يشتعل....

طرق ظنه، فوجده جالسا في ركن من أركان الجامعة، تقدم منه، سلم عليه، شكى له ما يعتريه..

قال له محمد:..

- يا عادل.. أنت أكبر مني سنا وأكثر مني خبرة في مجال الحياة، يجب أن تتزوج من جلدتك، أنت بطبعك مسلم؛ زواجك من غير مسلمة سيكون زواجا فاشلا، مليء بالعقد، لاختلاف الأهداف والتربية. صدقني مع الزمن ستضمحل الوشائج، ستدعس على العلاقة، هذه نزوة شيطانية تحيط بك، تحرفك عن العادات والتقاليد، فلن تجد فيها سعادة تلين خشونة السرير. ستكون العيشة مزريه، غربة

داخل غربة، ومع الأيام تزداد المشاكل، ستلطخ الثوب الناصع بسواد العقد وتفاهة الفكر.. ثم كيف تود مخالفة شرع الله الذي يقول: ((وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ )).

هنا لمحت له فكرة، ولا تنكحو المش.....

- لمَ تنظر إلى الأمور من وجهة نظر سوداوية، من نافذة لا تعكس الحقيقة، أنا أحبها وهي تحبني، كلانا سنتحمل وزر البعض، سنجتاز خندق الصعاب بيسر - ألا توجد زيجات من هذا النوع نجحت وبنت أسرٌ ساهمت في تقدم المجتمع؟.
- بلا... كل له ظرفه، وأنا أعرف ظرفك جيدا، حالتك لا تتطابق مع ما ذكرت، ماركتك شرقية مزدانة بألوان الجذور الإسلامية لا تطابق أية ماركة أخرى.
- يا أخي! الزواج لا يبنى بالحب فقط، أنما بالتوازن، لونك يختلف عن لونها، كل له سراطه الخاص، ولن تلتقيان أبدا. تذكر جيدا؛ للعقد أتراس مسننة حادة، تجرح، تترك أثرا بليغا في الجسد، لا يعالج بالحب أطلاقا، بل بتلاقي الذهن والروح والعادات والرغبات.. يجب أن تدرك بأن العلاقة قبل الزوج تختلف عما عليه من بعده، كاختلاف الليل والنهار، فلن تجد من يؤازرك ويتحمل وزرك سوى بنت بلدك المسلمة.
- الظاهر كلانا غير متفقين، كثيرا ما تراودني الأحلام على أن أستقر هنا، ففي بلداننا الحرية مكبوتة، والسعادة ينقصها فضل الاستمتاع بها، وسائل الترفيه شبه معدومة، الم تعاني أنت من هذه

الأمور؟ ألم تلتمس الفارق التقني بيننا وبينهم؟..

- أظن للسعادة ألوان مختلفة يا عادل، كطيف الشمس، ما تراه هنا سعادة، ربما تجد لها لون آخر في بلدك- دخولك السينما والبارات وشرب الخمر لا يعادل صوم رمضان وطقوسه في بلداننا، ولا بهرجة الأفراح أيام الأعياد (عيد الفطر والأضحى) عندنا، الاستمتاع بالعلاقات المزيفة والمبنية على المصالح والجنس والتعري والملذات والقمار ومداعبة النساء، لا تعادل الصدق والعفة والنية والنظافة والحشمة والحياء والألفة والجيرة وحب الخير والتصدق في بلداننا. نحن نحتفظ بالقمم والقيم وهم يحتفظون بالقمامة والخسة، يجب أن تفرق بين قيمنا وقيمهم.

عادل أعماه الحب، لم يقتنع بالشكل ولا بالجوهر لأفكار صاحبه، تفكيره منصب في جهة حبيبته، عقله يعتبر نافذة مغلقة، لا يرى من خلاله حدود العلاقة خارج مسارات القلب.

لكنه أمتنن لفكرة صديقه، لأنه فطنه على فكرة إسلامها، أنها فكرة جليلة استنبطها من خلال نقاشه-- بإسلامها ربما يغير رأي والده، أنه متيقن من حبيبته سوف لا تمانع مطلقا في مجاراته.

جمع بعض الكلمات في فكره ورنَّ على والده يهاتفه ...

- ألو .... كيف حالك يا أبي، كيف الوالدة العزيزة؟..
- الحمد لله يا بني، فكرنا منشغل بك، ننتظر عودتك بفارغ الصبر.
- أود أن أخذ رأيك في مسألة زواجي، فأنا لن أخالف رايك أبدا.... يا ترى؛ هل أكسب رضاك لو أنها أسلمت؟ أتسمح لي بالزواج منها؟

- نعم يا بني، سأفتخر بك أمام ربي، سأكون أسعد الخلق على أن تعيش معنا لتتعلم عاداتنا وتقاليدنا.

انفرجت أساريره وتكيف مع الوضع الجديد، المسألة حلت عقدتها، لن تكلفه سوى إسلام حبيبته....

لكن كيف ستسّلِمْ وتترك دينها؟ كيف سيقنعها ؟.....

وفي اليوم التالي أخبرها بواقع الأمر، أخبرها بالحقيقة!.... أن العقبة الوحيدة في الزواج منها هو إسلامها حسب رغبة الأب والدين الإسلامي. أنه لا يريد أن يبغض أبوه ويخسره ولا أن يخسرها، فعقوق الوالدين ليس لدائها دواء أبدا، رضا الله من رضا الوالدين والعاقبة للمتقين. أخبرها بشرط والده اللازم لجمعهما...

- سألته الآنسة روز بشغف وكانت في قرارة نفسها تود التعرف عن الإسلام لأنها غير متدينة:....
- وكيف أسلم؟ علمني الإسلام أولاً.....

أقتنى لها كتباً باللغة الإنجليزية عن الإسلام والقرآن وأحاديث الرسول، والسيرة وما إلى ذلك من كتب الفقه العديدة، دفعها إليها دفعة واحدة، مع قراءة مجودة باللغة العربية للقرآن.. ثم قال لها: ...

- إقراءيها بتمعن مع التفسير المرفق....
- أمهلني أربعة أشهر على أن لا ألتقيك بها، ولا تلتقيني. كي لا يُفسدَ الأمر، كي لا يكون لك تأثير سلبيٍ على أفكاري، أو تكون لي حجة ما عليك مستقبلا في حالة عدم قناعتي بدينك... أود أن تبزغ القناعة من بوتقة أحاسيسي وأفكاري، كي استطيع مجاراة الحالة بتغير ثوب الجسد والعقل، لأنظر لما حولي بقناعة ذاتية وليس بتأثير خارجي.
- وهو كذلك...

كان الحب كفيلا بأن يعقدا الاتفاق بهدوء، كما تعلق بها تعلقت به روز. حبها المتيم كان كفيلا بأن تنغمس في قراءة الكتب بتيقن وإمعان عميق؛ لتعرف امتداد حبيبها، لتعرف إرهاصاته الفكرية التي تكبل بها والتي ستتزوج منه برغبة، لتكن على دراية تامة بما يمنعه أو يتحكم به.

انقطعت خلال تلك المدة عن العالم تماما، حتى صارت تبحث في أمور الدين عبر الويب سايت (الأنترنت)، لتوسيع مداركها أكثر وأكثر.

في إبرامها الاتفاق معه أظهرت ذكاءً مفرطا في فرض شرطها عليه، لتستطيع أن تستوعب مضمون الكتب، وكان لزاما عليها أيضا أن تبتعد عنه تماما، القناعة ضرورية في إقرار القرار، كي لا تلوم نفسها حين تتخذ القرار المناسب، كي لا تضع أمامها مبررات الفشل وملامة الأهل والأصدقاء.

سارت على هذا المنوال تقرأ الكتب بعيداً عن الضغوطات الخارجية، استمرت القطيعة حتى كاد عادل أن يجن بغيابها، ود أن يلتقيها، أن يشبع غرائزه من جمالها الفاتن، هذا الشاب عدّ هذه المدة بالساعات والدقائق، لا بل بالثواني، لكنه لا يود أن يفسد مشروعه، لا يود أن يبغضها ويضع حجر عثرة أمام رغباته، كان قد بحث عنها في ذاته وفي عيون المجتمع وأرجاء الطرق دون أن يشعرها بذلك وعن بعد.

فيما كانت هي الأذكى بحيث تجنبت لقائه نهائيا، لا بل صارت تتحاشى الأماكن التي طالما كانا يلتقيان بها، صارت تنظر إليه كما ينظر القمر إلينا من خلف ستار السحب، تحاشت لقائه؛ حتى أنقضت فترة السبات الطويلة.. حينها خرجت دودة القز من شرنقتها بعد فترة السبات فراشة جميلة، براقة بثوبها الجديد.

لم يلتقيها أنما هي التي التقته بلباس غير التي كانت تلبس،

وبشكل يختلف عما تعرف عليها، ما عادت ترتدي القصير، ولا تفرط خصل الشعر الأصهب، صارت ترتدي حجابا بسيطا وثيابا مستورة.

فرح بلقائها، هجس برغبة احتضانها، بتقبيلها، لكنها لم تكن عندها تلك اللهفة ولا تلك الرغبة الجامحة التي كانت تتملكها سابقا، لم تكن لها لهفة إليه كلهفته عليها، كانت عادية وكأنها تلتقيه لأول مرة في حياتها.

في الوهلة الأولى سلمت عليه سلام الإسلام؛ فأصابته بسهم إيمانها في مقتله، غص في فرح وجذلٍ عميقين، انفرجت أساريره، غق بصمت واندهاش، فلتت أطيار ظنه من أقفاصها.. وقبل أن ينغمس بألوانها الجديدة؛ أغلقت ظرف الحب بيدها للأبد، أدركته بحقيقتها الجديدة قبل أن يثني عليها، وقبل أن يعد لها وعود الفرح والزواج؛ أفقدته توازنه، لكمته على فاهه، اختزلت صبره الطويل بالمفاجأة المدوية... لقد أخبرته بما اختزنت في داخلها من أفكار صريحة وصادقة، قائلة له:...

- أني قد أسلمت واقتنعت بالإسلام، والإسلام دين حق--- لكنني لن أستطع أن أتزوج منك!! لأنك بالمعنى الحقيقي للإسلام لست مسلماً! إنما متجنٍ على الإسلام. أنا أشكرك لأنك عرفتني عن الحقيقة الضائعة التي كنت أبحث عنها في دهاليز أفكاري منذ زمن، ما كنت أصل اليها لولا وجودك في حياتي. أنت الذي وضح لي السبل وإنارة لي الجانب المظلم من حياتي، قبل الإسلام كنت أعيش في عالم مليء بالكذب والخداع، الله أرسلك إليَّ لتنقذني لأنه يعرف مكنون قلبي الطيب. من اليوم سأعتبرك صديقا لي لا أكثر، ممكن أستعين بك أن واجهتني

معضلة ما في المستقبل.

صدمته بواقعها الجديد، وقراراها الجديد، لم يكن ينتظر مأساته تحصل على يدها، ضاق الكون به، بات لا يُرسِّي على حجر، لم ينم ليلته، كانت ليلة لليلاء تلك التي أنشغل بها تفكيره دون أن يخطو خطوة جريئة نحو هدفه، بعد أن تجرد من حلمه وهشِمَ صرحه.

في صباح اليوم التالي التجأ إلى صديقه محمد! ليفرغ همومه في جعبته، كان محمد كعادته جالس على أريكة في فضاء حديقة الجامعة منشغل بدروسه، يتأمل تفوقه كما وعد أبوه، فهو لم ينسى نظرات والدته المليئة بالدعاء حين ودعته وحين رشت خلفه طاسة الماء ليتجنب شر العين والطرق. كان منهمكا في مذاكرته لتحقيق وعده لوالديه بالتفوق.

- صباح الخير محمد ....
- صباح النور.... ما بك متجهم الوجه، لم هذه الدموع محصورة في مقلتيك؟ ماذا جرى لك يا رجل! هل أهلك بخير؟....
- أطمأن لا شيء من هذا القبيل.... لقد أخلفت روز وعدها معي بعد أن جعلتني أتعلق بها. لم ترضى بي زوجا لها، بعد أن كانت تتأملني وتتوسل بي من قبل.
- لِمَ كل هذا؟....
- لقد أسلمت!
- عظيم.
- وصارت تعُدَني من غير المسلمين حسب قياساتها، تغيرت نظرتها عليَّ تماما، تأثرت بالإسلام، فتغيرت زاوية نظرها أتجاهي ب180°، تبدلت النسب في تقديراتها، فوجدتني مخالفا لشرائع

الإسلام.

محمد مازحا:...

- هههههههههههه والله لم تقل سوى الحق، لم أنت غاضب يا أخي أليست ما قالته حقيقة؟ هههههه –
- أنا لست فاض للمزاح، أرجوك قدر وضعي.... ما هو الحل لديك؟ أنا مشتت الفكر، أخرجني من أزمتي.
- قلت لك لا تحاول معهن، مقياس ثيابهن لا يليق بنا، ثم لو تزوجتها وهي غير مسلمة، حتما ستتركك يوما ما، وإذا أسلمت وتعرفت على الاسلام جيدا، لأنها سوف تراك بمنظار الذي اكتشفتك به الآن، فأنت واقف على الحد، بين أن تكون مسلما حقيقيا أو ملحدا، الوجهين ينطبقان عليك. يا أخي؛ أغسل اللون الرمادي من وجهك كي يبيض، البياض رونق القلوب الصافية وهو سيد الألوان.
- لن أنتظر هنا، سأرجع للوطن بمجرد استلام شهادة تخرجي، فأنا بحاجة إلى النسيان.

أصبح عادل عبرة له، بقي على حال سبيله خلال السنتين الأخيرتين بعيدا عن عالم النساء والخمر، وهو الذي لا يحتاج لنصح وعبر كي يلتزم بأدبه وأخلاقه....لم يتغير طوال مدة دراسته، تجنب النساء وخاصة زميلاته داخل قاعات الدراسة، متحفظا بعلاقاته ومحتفظا بعاداته وتقاليده المشبعة بقيم الدين الإسلامي.

كان أستاذه الدكتور قد قرأ صفحته بعناية، فأحترم خصوصيته، حاول مرارا أن يبعده عن المواقف المحرجة، لا يجعله يحتك بهنَّ أو يكلمهنَّ، لا بل أنه تفهم وجهة نظره جيدا، حينما بين له الحقيقة التي يقتنع بها، بل هو أحب محمد على

حسن أخلاقه وتربيته الفاضلة وصدقه، فصار من المقربين لديه، صار ممن يستعين بهم لمعرفة خفايا الشرق وجوهر الدين..... سارت الأمور على هذا المنوال إلى أن وصل إلى نهاية المرحلة النهائية من الدراسة، حينها أخبره الدكتور المشرف بآلية العمل قبل التخرج. فقال له:..

أحترم رغبتك في عدم الاختلاط بالفتيات، ولكن هناك عرف لابد منه، وعليك التكيف معه في الفترة المقبلة. ألا وهو الاشتراك كمجموعة في بحث التخرج. العمل سيكون مشتركا.. أي أنكم ستقسمون لمجموعات، وكل مجموعة ستقوم ببحث مشترك، وهذه المجموعات ليس لي دخل في اختيارها أو أنشائها. ستكون مختلطة بين الذكور والإناث حسب التوزيع الإلكتروني.. تتناقشوا، وتكتبوا أبحاثكم الخاص بكم، وهذا البحث سيكون الدليل الوحيد لعبوركم المرحلة، وستكون ضمن كل مجموعة عدد من الفتيات، عليك أن تتعامل معهن وأن تكتبوا بحثا مشتركا يكون سبب عبوركم المرحلة.

حاضر يا أستاذ.. سأكون عند حسن ضنك.

لم يبدي امتعاضا من الوضع الجديد، استمرت اللقاءات بين أفراد المجموعة على طاولة بحث واحدة، وكانت ضمن مجموعتهم فتاة واحدة أمريكية. كان دائما ما يغض النظر عن الفتاة، إن تكلمت كلمها دون أن يركز بنظره إليها، إذا أعطته ورقة أخذها دون أن يلتفت إليها، دون أن يبتسم معها أو يلاطفها أو يحتسي شيء معها. كأنه بتصرفه هذا لا يعير إليها أية اهتمام، هذا ما كانت تشعر به مما أغاض مشاعرها كثيرا.

فيما هو كان يجد حرجا من وجودها جالسة بجانبه ،عملا بقوله تعالى{وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ} صدق الله العظيم.

صبرت الفتاة على مضض، المرارة تلوك في نفسها وفي فمها، يكاد الأمر لا يطاق بعد أن تكدرت الألفة بينهما، شعرت بتصرفه هذا؛ تصرف أهوج فيه إهانة لها، شعرت أنه لا يكن لها احتراما أو قيمة ما، حتى تأودت العلاقة وتنحت نحو الصدام من وجهة نظرها..

أنما للصبر حدود لا يمكن تجاوزه، هذه الاستفزازات التي شعرت بها شنجت أعصابها. طاقتها محدودة.. مرة تلو المرة تراكمت في ذهنها نفايات تلك اللقاءات، فلم تعد تحتمل أعباء قسوة النظرة، وهشاشة الأرضية الرخوة التي تقف عليها دون احترام واضح.

وفي يوم مغبر من حياتها، أتقدت شرارتها، علا صخبها، انحرفت بظنها، هبت بوجه كالريح العاصفة، أقلعت خيمة الوشائج والعرف والصبر من جذورها، حطمت جدار الصمت، أقصت الزمالة من عالمها بعد أن يئست من احتضانها، جعلت الهوة تحيل بينها وبينه، تصحرت العلاقة، قحلت من جانبها تماما. حل غضبها كالصاعقة على قفا رأسه؛ جعلته يتقوقع بصمته دون أن ينبس بشفة-- صارت تسبه، تشتمه، تسب العرب والإسلام، تنعته بالقبح والتخلف وقلة الذوق....الخ من قبح وذم مما قالته.

- أنتم حثالة، لا تحترمون النساء، لا تعرفون من الحضارة شيء، منحطون، سفلة، أغبياء....الخ...

لم تدع شيئا في قاموس السب إلا وذكرته له، وكنته به..... حلت عليه كالغمامة السوداء، ترعد، تبرق، تمطر مطرا أسودا، زخت عليه غضبها بكل أنواع القسوة.. رغم كل ذلك لم ينبس بشفة، بقي جالسا ينتظر أن تفرغ مخزونها، دون أن يرفع رأسه، دون أن يرفع نظره إليها... حتى وجدت نفسها قد زلت كثيرا، فانكمشت داخل نفسها، أنكشف سترها، فلم تعد

تستطع أن تلم قبحها وسخريتها....

أما هو؛ فلم يخرج عن طبع الهدوء الذي تقمصه، تركها على سجيتها تلفظ حمم بركانها من حدقات عينيها، حتى استكانت وهدأت ثورتها، باتت أشبه بالرماد تذرها ريح الموقف، لا تعرف السكينة، أصابها الخجل، أصفر وجهها لعدم رده عليها ولو بنظرة.... ودت أن تعتذر منه دون أن تجد مخرجا من حرجها.

بعد أن هدأت قال لها:..

- أهدئي يا ليما!... أشربي قليلا من الماء، سأجلب لك عصير الليمون ليهدئ أعصابك.

بعد أن جلب لها العصير قال لها:....

- سأوضح لك ما عانيت منه، نحن لسنا مثل ما تصورت وذكرت.... نحن أرقى بكثير مما يخطر في بالك...

حين إذ انتبهت له، وأصغت لحديثه مفلجة حدقات عينيها الواجفة، الصمت ملأ فاهها الفاغر، المفتوح بغرابة لما تسمع، وما أصابها من اندهاش، قال لها:.....

- لو كان عندك قطعة من الألماس الغالية؛ ماذا ستفعلين بها؟.. ألا تضعينها في قطعة من المخمل بعناية تامة وحرص شديد، ثم تضعينها داخل الخزانة بعيدا عن أعين الغرباء والغرماء؟ إلا تحتفظين بها بعيدا عن الأعين المتلصصة التي تُلتعْ بجمالها؟ خوفا من أن تحيط بها خيوط الشر. ألا تتزينين بها في المناسبات لتزيدك بهجة وإشراقة؟.....

- بلا! من الطبيعي أن أفعل ذلك، لأنها جوهرة.

- نحن كذلك ننظر للمرأة كالجوهرة.... فهي غالية

جـدا، بـل أغلـى مـن المـاس، أغلـى شـيء يمكـن أن يحـتفظ بـه الرجـل فـي حياتـه. ومـن المفـروض أن تحـتفظ المـرأة بجمالهـا وجسدها وكيانهـا لزوجهـا فقـط. لا علاقـات جنسـية قبـل الـزواج ولا صـداقات مزيفـة، كـل طـرف يحـافظ علـى الآخـر بصـدق وثقـة تامـة، كمـا يحـافظ الشـخص علـى عينيـه وجوهرتـه، يجمعهمـا الحـب والاحتـرام. لا يجـوز للمـرأة أن تنظـر لغيـر زوجهـا، وكـذلك الـزوج لا ينظـر لغيـر زوجتـه، مثلمـا يفتخر بها في المجتمع، وهي كذلك تفتخر به.

- ألهذا السبب تغض النظر عني؟
- نعـم .... عنـدكم المـرأة كسـيجارة الحشـيش، كـلٍ يأخـذ منهـا نفسـا أو نفسـين ثـم يمررهـا إلـى صـديقه، وصـديقه يمررهـا إلـى الآخـر حتـى تنتهـي، ثـم ترمـى بـين الأرجـل لـتسحق وتـداس بالأقـدام. ثـم بعـد ذلـك يبحـث عـن سـيجارة جديـدة، وهكـذا هلـم جـرا. نحـن لا نريـد المـرأة أن تكـون سـيجارة تحتـرق بـين الأفـواه، ومـن ثـم تسـحق بالأقـدام، نحـن نعشـقها كماسـة، كلمـا مـر عليهـا الـزمن تـزداد بريقـا ولمعانـا وقيمـة، لتبقـى محافظـة على جمالها وقيمتها ورقتها في البيت وفي المجتمع.

بعـد ذلـك النقـاش؛ انقطعـت ليمـا عـن المجموعـة مـدة أسـبوع تقريبا.. فلم يفكر بها، ولم يسأل عنها، وكأنها لا وجود لها..

وذات يـوم وخـلال محاضـرة الأسـتاذ، جـاءت امـرأة متحجبـة وجلسـت فـي آخـر الفصـل.. اسـتغرب الجميـع!! لأنـه لـم تكـن معهـم طـوال السـنة الدراسـية فـي الجامعـة امـرأة محجبـة. وبعـد انتهـاء المحاضـرة؛ تقـدمت منـه وتحـدثت معـه، فكانـت المفاجئـة، أنهـا لـم تكـن سـوى تلـك الفتـاة الأمريكيـة ليمـا!.... والتـي كانـت مـن ضـمن مجمـوعتهم لكتابـة بحـث التخـرج.... تقـدمت منـه

منحنية الرأس وكأنها تود أن تعتذر عما بدر منها من تهجم بلا مبرر.

- أنا آسفة لم أكن أفهمك....
- لا عليك يا ليما.... أنا لم أسمع ما قلتِ، ولم أفكر بكلامك إطلاقا، أنها لحظات قد ولت.
- أود أن أعلمك بأني أود دخول الإسلام على يديك، وأودك أن تساعدني وتعلمني كيف ابدأ وكيف أخطو خطواتي الأولى.
- يا بشراك!.... يا رب! تهدي من تشاء وتظل من تشاء --- ثم علمها الشهادة.. فشهدت أمامه (أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمدا رسول الله) ثم صار يتواصل معها يوما بعد يوم، حتى تقوت الوشائج وزادت الألفة.

دخلت في الإسلام لأنها وحسب قولها قد هزتها تلك الكلمات التي قالها لها محمد، فصارت تلتقي به كل يوم، حتى تخضبت روحها بمبادئ الإسلام..

أقتنى لها بعض الكتب الدينية بلغتها، صارت تدرس الدين، وتزداد تعمقا به، أصبح لقاءاتهما شبه يومية، حتى استوعبته تماما.

وبعد التخرج وقبل أن يفترقا عرضت عليه نفسها للزواج منه قائلة:.....

- أبعد أن هديتني تتركني؟ – أريد الزواج منك! فأنت سيد الشباب، لقد غيرتني فأعجبني أدبك، ووسامتك وأخلاقك ودينك الحنيف، سأخلص لك ما حييت.
- وكيف لك أن تتركي واقعك وعاداتك وبلدك وأهلك، فأنا لن أمكث هنا سأرجع إلى بلدي بعد التخرج مباشرة.

- سأكون كما ترغب، مثالية، مطيعة، أتبعك أينما ترحل!....
- شرطي الوحيد هو موافقة والديَّ، عليك أن تنتظري ردهم....

أرسل صورتها لوالديه عبر الحاسب الآلي، وذكر لهم تفاصيل قصته معها بالكامل، وبعد مداولة يومين أتصل به أبوه وقال له؛.....

- على بركة الله يا أبني، أحرص عليها، فلك أجر إسلامها وأجر زواجها وهدايتها، فتوكل على الله.

لم يتأخر عن قرار أبيه، أتصل بالدكتور وزملاء الدراسة، عمل فرحا صغيرا بمعية أسرة العروسة والزملاء. طوق سواعدها وجيدها بالذهب الخالص. تغيرت مفاهيم زملائه، لم يصدقوا ما حدث، صار شخص جليلا في نظرهم، الكل يكن له الاحترام والتقدير، لقد فرض نفسه واحترامه دون عناء أو تكلف.

# النهاية

للكاتب عشرات الكتب بين
رواية ومجموعات قصصية

## المجموعات القصصية:-

1- فرصة هدف
2- عصير الرمان
3- لغة العود والحجر
4- زيارة طبيب
5- كرستال

## مجموعة الروايات:-

1- لغز اللؤلؤة
2- فتاة الكاظمية
3- جنوح النفس
4- عبير
5- شذرة من العقد
6- طريق الجحيم
7- غراب البين
8- عقاب الذات
9- الاقدام المتكسرة
10- عواصف الجنين
11- الفراغ
12- القمة

فكان يدرك بأن الطفل هو نتاج أبوه.. أي بمعنى آخر، صورة الآن هي نسخة طبق الأصل من أخلاق وأدب والده، مع رتوش إضافية تلمع حدود الشخصية في مجال حياته.

كان قد أوصاه بالتقوى وحسن الأدب والعلم، فقال له كقول العالم الجليل الصالح رويم لابنه في بداية نشأته، حيث قال له:.....

[يا بني اجعل عملك ملحاً، وأدبك دقيقاً]. -

أي استكثر من الأدب حتى تكون نسبته قياساً إلى العمل كنسبة الدقيق إلى الملح في خلطة عجينة الخبز. كثير من الأدب مع قليل من العمل الصالح، خير من كثرة العمل مع قلة الأدب.

أراده أن يكون مثالياً في سلوكه ليفتخر به، فتحقق له ما أراد وما ظن به، تربى على ديدن أبيه مبتعداً عن الكذب والغش والتصنع والإباحية والتبذير، أشبع ذهنه بخصال المكرمين من الأولياء والصحابة، محصناً فكره بأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وبكم هائل من العبر والقصص المستقاة من وحي القرآن والتراث. لتكن بين يديه أسلحة يتفادى بها مهاوي الخطأ، وما إلى ذلك من أمور الدنيا المفاجئة التي حتماً ستعتري طريقه..